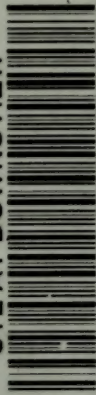


UTL AT DOWNSVIEW



D RANGE BAY SHLF POS ITEM C
39 10 14 02 04 023 3

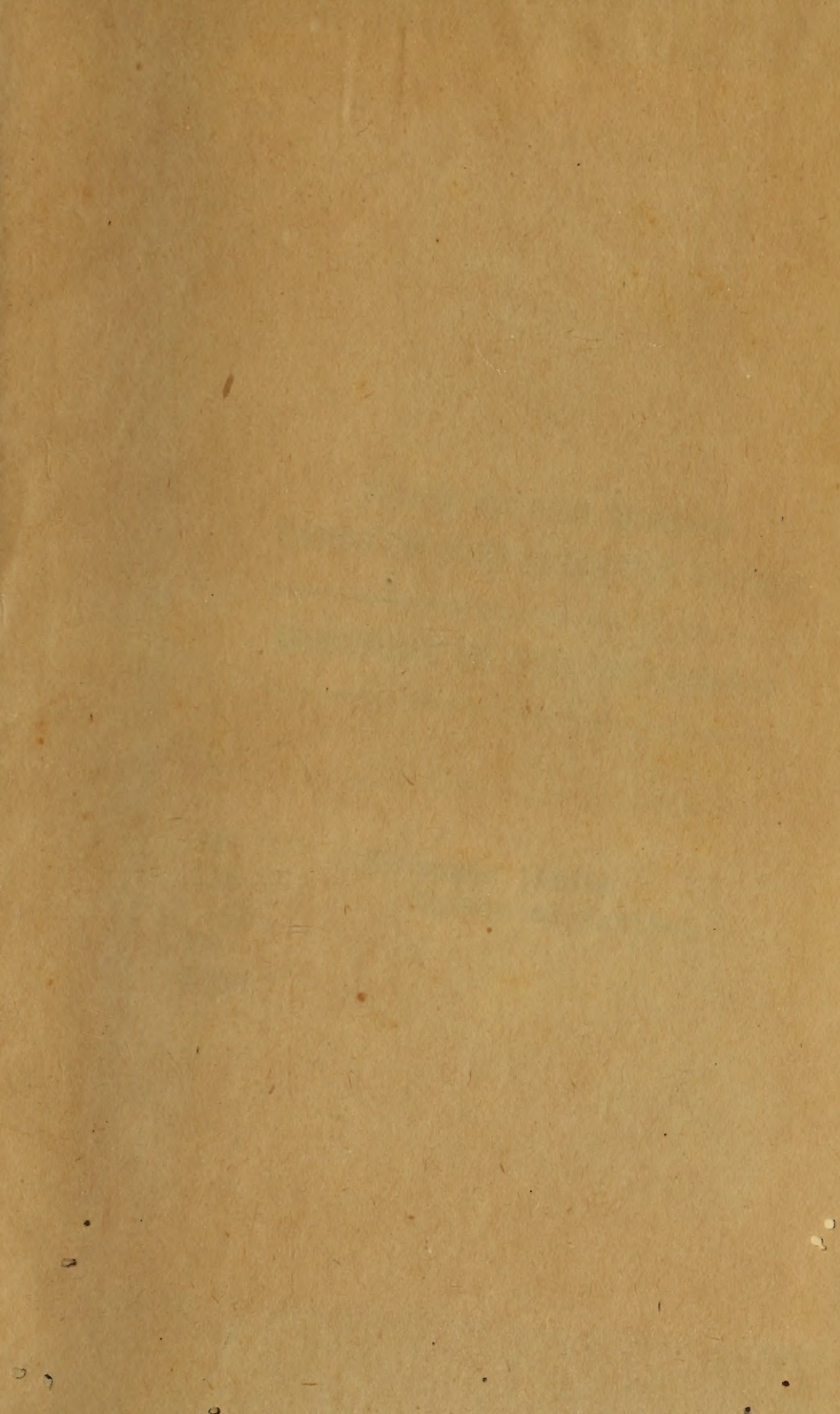
PLEASE DO NOT REMOVE
CARDS OR SLIPS FROM THIS POCKET

UNIVERSITY OF TORONTO LIBRARY

BP
128
.16
M8
1902

Muhammad 'Abduh
Tafsir al-Fatihah





تفسير الفاتحة

مبدؤ بمقدمة التفسير

مأخض من دروس الامام العلم والاستاذ الحكيم

الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية الآن

حفظه الله آمين

وبليه ثلاث مقالات تفسيريه له أيضاً

(أولها) في قوله تعالى (وان تصبهم حسنة فقلوا

من عند الله) الخ الآية مع الجمع بينها وبين قوله تعالى

(ما أصابك من حسنة فمن الله) الخ الآية (وثانها)

بيان مسألة الغرائق ودحض الشبه فيها وتفسير الآيات

أيضاً (وثالثها) توضيح مسألة زيد وزينب أو ابطال

التبني في الاسلام وتفسير الآيات الواردة في ذلك

(النزم طبعه احمد عمر المحمصاني الازهري)

حقوق الطبع محفوظة لصاحب المنار

(طبع بمطبعة الموسوعات بباب الخلق بمصر سنة ١٣١٩)

« لصاحبها اسماعيل حافظ »

﴿ بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ ﴾

حمد آمن علم الأميين بالقلم، علم الانسان ما لم يعلم، و صلاة
وسلاماً على سيدنا محمد المبعوث للامم، وعلى آله وصحبه وسلم
وبعد فان القرآن هو هداية الله العظيمى لعباده صلح
باتباعه من لم يعرف من قبله اصلاحا، وأفلح به من لم يجد
من دونه فلاحا، وقد أنشأ المسلمون يشعرون في هذه الايام
بأنهم ما فقدوا مجد سلفهم الصالحين، وتلك السعادة التي كانت
لآبائهم الأولين، الا لأنهم لم يهتدوا به كهديتهم، ولم يأخذوه
بقوة كأخذهم، ورجع طلاب الاصلاح فيهم الى قاعدة الامام
مالك بن أنس رحمه الله تعالى وهي « لا يصلح آخر هذه الامة
الا بما صلح به أولها » ورأوا الامة في حاجة شديدة الى فهم
القرآن من حيث كونه هادياً الى السعادة ومرشداً الى كمال
العمران الاجتماعي

ومن فضل الله تعالى على الانسان انه لا يستعد لشيء
من الخير الا ويفيضة عليه بفضله وكرمه فألهم محمداً عبده
(مفتي الديار المصرية لهذا العهد) ان يفتح للمسلمين هذا الباب،

وهو عبدُ آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب ، وجعله إماماً
 لأولى الألباب ، فانشأ يفسر القرآن على هذا الوجه في الجامع
 الأزهر الشريف في مجالس يحضرها العلماء والطلاب وكثير
 من الوجهاء ورجال الحكومة وأجمع أهل الفضل على أن هذا
 التفسير هو الذي ينفخ روح الحياة المليية في المسلمين وأنه يجب
 نشره في جميع الاقطار ورغب الى كثير من أهل القطر
 المصري وغيره ان أنشر في « المنار » خلاصة ما يقرره الاستاذ
 في الدرس لأن المنار هو المجلة الدينية الوحيدة المنتشرة في الاقطار
 فوافقت رغبتهم رغبتى بل علمت ان هذا واجب عليّ وان المنار ما
 انشأ الا لئله فطفقت أكتب خلاصة التفسير وأنشرها في
 المنار متتابعة بعد عرضها على الامام المفسر وإجازتها من لده
 وبعد ان تم نشر تفسير الفاتحة رأيت الرغبات متوجهة الى
 طبعه في كتاب على حدة لأن هذه السورة هي التي لا يجهلها
 مسلم في الدنيا لانها من فرائض الصلاة وأركانها ولأنه أجمل فيها
 ما فصل في الكتاب كله تفصيلاً . فعزمت على تجريد ما من « المنار »
 وطبعها مستقلة ليعم نشرها وينفع بها من لم يقرأ المجلة . ولكن
 الشواغل الكثيرة قضت بالارجاء والتسويف حتى انبرى أخى في

الله تعالى الفاضل الغيور الشيخ احمد عمر المحمصاني الأزهرى
 لمساعدتي على الطبع والنشر فأفذهنا بعد عرضة ثانية على الاستاذ
 واجازته وتصحيحه وزيادته بعض فوائده. ورأينا ان نضم الى تفسير
 الفاتحة مقدمة التفسير وتفسير بعض الآيات التي أشكل على العلماء
 حلها لانها من المتشابهات التي فتن المسلمين بها أهل التأويل. وأكثر
 القدح بسببها المخالفون لنا في الدين، وهي (١) ما يتعلق بنسبة
 أفعال العبد اليه تارة والى الله تعالى تارة اخرى بما يوهم التناقض في
 قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ
 سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » وقوله عز
 وجل « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِن
 نَفْسِكَ » (٢) ما استدلوا به على مسألة الغرائق الشهيرة القادحة
 في الثقة بالوحي لو صحت. (٣) ما ورد في شأن تطليق زيد بن حارثة
 زينب بنت جحش رضي الله عنهما وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم
 بها لحكمة إبطال سنة التبيني السيئة. وقد كتب الامام المفتي تفسير
 هذه الآيات بقلمه كتابة حلت عقد كل إشكال ونشرت في
 المنار داخضة للشبهات، منيرة للظلمات، قامعة للأباطيل، وعلى

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين * اياك ذبذبت * واياك نستعين * اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين انعمت عليهم * غير المغضوب عليهم ولا الضالين * آمين

* مقدمة التفسير *

فهم القرآن بالتعقل والتدبر • للتفسير وجوه شتى • القرآن حجة قائمة الى يوم القيامة ولا بد لكل مسلم أن يكون له من فهمه نصيب يقدر طاقته واستعداده • مراتب التفسير • ما الذي يجب على الناس من التفسير • التفسير فرض كفاية • الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده • جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الاولى •

تأثير القرآن العظيم واعناء العلماء الاولين باللغة العربية

التكلم في تفسير القرآن ليس بالأمر السهل وربما كان من أصعب الأمور وأهمها وما كل صعب يترك ولذلك لا ينبغي أن يمتنع الناس عن طلبه • ووجوه الصعوبة كثيرة أهمها أن القرآن كلام سماوي تنزل من حضرة الربوبية التي لا يكتنه كنهها على قلب أكمل الانبياء وهو يشتمل على معارف عالية •

ومطالب سامية . لا يشرف عليها الا اصحاب النفوس الزاكية
والعقول الصافية . وان الطالب له يجد أمامه من الهبة
والجلال . الفائضين من حضرة الكمال . ما يأخذ بتلييه .
ويكاد يحول دون مطلوبه . ولكن الله تعالى خفف علينا
الأمر بأن أمرنا بالفهم والتعقل لكلامه لأنه انما أنزل
الكتاب نوراً وهدى مبيّناً للناس شرائعه وأحكامه ولا يكون
كذلك الا إذا كانوا يفهمونه

والتفسير الذي نطابه هو فهم الكتاب من حيث هو
دين يرشد الناس الى ما فيه سعادتهم في حياتهم الدنيا وحياتهم
الآخرة فان هذا هو المقصد الأعلى منه وما وراء هذا من
المباحث تابع له أو وسيلة لتحصيله

التفسير له وجوه شتى أحدها النظر في أساليب الكتاب
ومعانيه وما اشتمل عليه من أنواع البلاغة ليعرف به علو
الكلام وامتيازته على غيره من القول . سلك هذا المسلك
الزمخشري وقد ألمّ بشيء من المقاصد الأخرى ونحاً نحوه
آخرون (ثانيها) الاعراب وقد اعتنى بهذا اقوام توسعوا في
بيان وجوهه وما تحتمله الألفاظ منها (ثالثها) تتبع القصص

وقد سلك هذا المسلك أقوام زادوا في قصص القرآن ماشاءوا من كتب التاريخ والاسرائيليات ولم يعتمدوا على التوراة والانجيل والكتب المعتمدة عند أهل الكتاب وغيرهم بل أخذوا جميع ما سمعوه عنهم من غير تفريق بين غث وسمين ولا تنقيح لما يخالف الشرع ولا يطابق العقل (رابعها) غريب القرآن (خامسها) الاحكام الشرعية من عبادات ومعاملات والاستنباط منها (سادسها) الكلام في أصول العقائد ومقارعة الزائعين ومحاجة المختلفين وللامام الرازي العناية الكبرى بهذا النوع (سابعها) المواعظ والرقائق وقد مزجها الذين ولعوا بها بحكايات المتصوفة والعباد وخرجوا ببعض ذلك عن حدود الفضائل والآداب التي وضعها القرآن (ثامنها) ما يسمونه بالاشارة وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ومن ذلك التفسير الذي ينسبونه للشيخ الاكبر محي الدين ابن عربي. وانما هو للقاشاني الباطني الشهير وفيه من النزغات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز

وقد عرفت ان الاكثار في مقصد خاص من هذه المقاصد يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الالهي

ويذهب به في مذاهب تنسيه معناه الحقيقي لهذا كان الذي
نعنى به من التفسير هو ما سبق ذكره ويتبعه بلا ريب بيان
وجوه البلاغة بقدر ما يحتمله المعنى وتحقيق الاعراب على
الوجه الذي يليق بفصاحة القرآن وبلاغته

ويمكن أن يقول بعض أهل هذا العصر لا حاجة الى
التفسير والنظر في القرآن لان الأئمة السابقين نظروا في
الكتاب والسنة واستنبطوا الاحكام منهما فما علمنا الا ان ننظر
في كتبهم ونستغني بها . هكذا زعم بعضهم ولو صح هذا الزعم
لكان طلب التفسير عبثاً يضيع به الوقت سدى وهو على ما فيه
من تعظيم شأن الفقه مخالف لاجماع الامة من النبي صلى الله
عليه وسلم الى آخر واحد من المؤمنين ولا أدري كيف يخطر
هذا على بال مسلم

الاحكام العملية التي جرى الاصطلاح على تسميتها فقهاً هي
أقل ما جاء في القرآن وإن فيه من التهذيب ودعوة الارواح الى
ما فيه سعادتها ورفعها من حضيض الجهالة الى أوج المعرفة
وارشادها الى طريقة الحياة الاجتماعية ما لا يستغني عنه من
يؤمن بالله واليوم الآخرة وما هو أجدر بالدخول في الفقه الحقيقي

ولا يوجد هذا الارشاد الا في القرآن
وفيما أخذ منه كاحياء العلوم حظ عظيم من علم التهذيب
ولكن سلطان القرآن على نفوس الذين يفهمونه وتأثيره في
قلوب الذين يتلونه حق تلاوته لا يساهمه فيه كلام كما ان
الكثير من حكمه ومعارفه لم يكشف عنها اللثام ولم يفصح عنها
عالم ولا إمام . ثم إن أئمة الدين قالوا إن القرآن سيقى حجة
على كل فرد من أفراد البشر الى يوم القيامة لحديث (والقرآن حجة
لك أو عليك) ولا يعقل هذا الا بفهمه والاصابة من حكمته وحكمه
خاطب الله بالقرآن من كان في زمن التنزيل ولم يوجه
الخطاب اليهم لخصوصية في أشخاصهم بل لأنهم من أفراد
النوع الانساني الذي أنزل القرآن لهدايته . يقول الله تعالى
(يا أيها الناس اتقوا ربكم) فهل يعقل انه يرضى منا بأن لانفهم
قوله هذا ونكتفي بالنظر في قول ناظر نظر فيه لم يأتنا من الله
وحي بوجوب اتباعه لاجلته ولا تفصيلاً . كلا انه يجب على
كل واحد من الناس أن يفهم آيات الكتاب بقدر طاقته لافرق
بين عالم وجاهل . يكفي العامي من فهم قوله تعالى (قد أفأخ
المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون) الخ ما يعطيه الظاهر

من الآيات، وأن الذين جُمعت أوصافهم في الآيات الكريمة لهم الفوز والفلاح عند الله تعالى ويكفي في معرفة الأوصاف أن يعرف معنى الخشوع والاعراض عن اللغو وما لا خير فيه والاقبال على ما فيه فائدة له دنيوية أو أخروية وبذل المال في الزكاة والوفاء بالعهد وصدق الوعد والعفة عن آتيان الفاحشة وأن من فارق هذه الأوصاف إلى اضدادها فهو المتعدي حدود الله المتعرض لغضبه . وفهم هذه المعاني مما يسهل على المؤمن من أي طبقة كان ومن أهل أي لغة كان ومن الممكن أن يتناول كل أحد من القرآن بقدر ما يجذب نفسه إلى الخير ويصرفها عن الشر فان الله تعالى أنزله لهدايتنا وهو يعلم منا كل أنواع الضعف الذي نحن عليه . وهناك مرتبة تعلو على هذه وهي من فروض الكفاية

للتفسير مراتب أدناها أن يبين بالأجمال ما يُشرب القلب عظمة الله تعالى وتنزيهه ويصرف النفس عن الشر ويجذبها إلى الخير وهذه هي التي قلنا أنها متيسرة لكل أحد وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور
(أحدها) فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها

القرآن بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكثف بقول فلان وفهم فلان فان كثيراً من الالفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد . من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً أو على وجه مخصوص ولكنه جاء في القرآن بمعان أخرى كقوله تعالى (هل ينظرون الا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) فما هذا التأويل ^(١) يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الاصطلاحات التي حدثت في الملة ليفرق بينها وبين ماورد في الكتاب فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التي حدثت في الملة بعد القرون الثلاثة الأولى ^(٢) فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعاني التي كانت مستعملة في عصر

(١) لا أتذكر أن الاستاذ ذكر معناه عند التمثيل وهو العاقبة

وما يعد به (أى القرآن) من المثوبة والعقوبة

(٢) من ذلك لفظ الولي معناه في القرآن غالباً الناصر والموالي وأولياء الله أنصار دينه من أهل الايمان والتقوى وقد اصطاحوا بعد ذلك على أن الاولياء صنف من الناس تظهر على أيديهم الخوارق ويتصرفون في الكون بما وراء الاسباب ولم يعرف الصحابة هذا المعنى

نزوله والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه وينظر فيه فر بما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية (سيأتي تفسيره في الفاتحة) وغيره ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه . وقد قالوا إن القرآن يفسر بعضه ببعض وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول واتفاقه مع جملة المعنى وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملة

(ثانيها) الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفظن لنكته ومحاسنه والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام وإنما يمكن فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة . ويحتاج في هذا إلى علم الأعراب وعلم الأساليب (المعاني والبيان) وإنما يمكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب . ترون في كتب العربية أن العرب كانوا مسددين في النطق يتكلمون بما يوافق القواعد

قبل أن توضع . أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم : كلا وإنما هي ملكة مكتسبة بالسمع والمحاكاة ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عند ما اختلطوا بهم . ولو كان طبيعياً ذاتياً لهم لما فقدوه في مدة خمسين سنة من بعد الهجرة

(ثالثها) علم أحوال البشر — فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب وبين فيه ما لم يبينه في غيره . بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعه والسنن الإلهية في البشر وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها الموافقة لسنته فيها فلا بد للناظر في هذا الكتاب من النظر في أحوال البشر في أطوارهم وأدوارهم ومناسبات اختلاف أحوالهم من قوة وضعف وعز وذل وعلم وجهل وإيمان وكفر ومن العلم بأحوال العالم الكبير علويه وسفليه ويحتاج في هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه

قال الاستاذ — أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) الآية — وهو لا يعرف أحوال البشر وكيف اتحدوا وكيف تفرقوا وما معنى تلك الوحدة التي كانوا عليها وهل

كانت نافعة أم ضارّة وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم .
 أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الالهية وعن
 آياته في السموات والارض وفي الآفاق والانس وهو اجمال
 صادر عن أحاط بكل شيء علما وأمرنا بالنظر والتفكير والسير
 في الارض لنفهم اجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا ولو
 اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره لكننا كمن يعتبر
 الكتاب بلون جلدّه لا بما حواه من علم وحكمة

(رابعها) العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن فيجب على
 المفسر القائم بهذا الفرض الكفائي أن يعلم ما كان عليه الناس
 في عصر النبوة من العرب وغيرهم لان القرآن ينادي بأن الناس
 كلهم كانوا في شقاء وضلال وأن النبي صلى الله عليه وسلم
 بعث به لهدايتهم وإسعادهم . وكيف يفهم المفسر ما قبضته
 الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها اذا لم
 يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه . هل يكتفي من علماء
 القرآن دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد بأن يقولوا تقليداً
 لغيرهم إن الناس كانوا على باطل وأن القرآن دحض أباطيلهم
 في الجملة . كلا .

(خامسها) العلم بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وما كانوا عليه من علم وعمل وتصرف في الشؤون دنيويها وأخرويها = فعلم مما ذكرنا أن التفسير قسمان (أحدهما) جاف مبعده عن الله وكتابه وهو ما يقصد به حل الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما ترمى اليه تلك العبارات والاشارات من النكت الفنية وهذا لا ينبغي أن يسمى تفسيراً وإنما هو ضرب من التمرين في الفنون كالنحو والمعاني وغيرها و (ثانيهما) وهو التفسير الذي قلنا إنه يجب على الناس على أنه فرض كفاية هو الذي يستجمع تلك الشروط لاجل أن تستعمل لغايتها وهو ذهاب المفسر الى فهم مراد القائل من القول وحكمة التشريع في العقائد والاخلاق والاحكام على الوجه الذي يجذب الارواح ويسوقها الى العمل والهداية المودعة في الكلام ليتحقق فيه معنى قوله (هدى ورحمة) ونحوها من الاوصاف. فالقصد الحقيقي وراء كل تلك الشروط والفنون وهو الاهتمام بالقرآن (قال الاستاذ) وهذا هو الغرض الاول الذي أرمي اليه

في قراءة التفسير

وتكلم الاستاذ أيضاً عن التفسير والتأويل في اصطلاح

العلماء ثم بين عظيم شأن تفسير القرآن وفهمه بما مثاله : مثل الناطقين بالعربية الآن - من العراق الى نهاية بلاد مصر اكش - بالنسبة الى العرب في لغتهم كمثل قوم من الاعاجم مخالطين للعرب وجد في كلامهم بسبب المخالطة مفردات كثيرة من العربية فهو لاء الاقوام اشد حاجة الى التفسير وفهم القرآن من المسلمين الاولين لاسيما من كانوا في القرن الثالث حيث بدى بكتابة التفسير واحسن المسلمون بشدة حاجتهم اليه ولا شك ان من يأتي بعدنا يكون احوج منا الى ذلك اذا بقينا على تقهقرنا ولكن اذا يسر الله لنا هضة لاهياء لغتنا وديننا فرما يكون من بعدنا احسن حالا منا .

التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء في كتب التفسير على ما في كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » وليت اهل العناية بالاطلاع على كتب التفسير يطلبون لانفسهم معنى تستقر عليه افهامهم في العلم بمعاني الكتاب ثم يبتون في الناس ويحملونهم عليه . لم يطلبوا ذلك وانما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ويمارون

فيها من يباريهم في طلبها ولا يخرجون لإظهار البراعة في
تحصيلها عن حد الاكثار من القول واختراع الوجوه من التأويل
والاغراب في الابداع عن مقاصد التنزيل . ان الله تعالى
لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه وانما يسألنا
عن كتابه الذي أنزله لارشادنا وهدايتنا وعن سنة نبيه الذي بين
لنا ما نزل الينا (وأنزلنا اليك الذكرك لتبين للناس ما نزل اليهم)
يسألنا هل بلغتكم الرسالة . هل تدبرتم ما بلغتكم؟ هل عقلتم ما عنده
نهيتم وما به امرتم؟ وهل عملتم بارشاد القرآن واهتديتم بهدي
النبي واتبعت سنته؟ عجباً لنا ننتظر هذا السؤال ونحن في هذا
الإعراض عن القرآن وهديه في الغفلة والغرور

معرفةنا بالقرآن كمعرفةنا بالله تعالى — أول ما يلحق الوليد
عندنا من معرفة الله تعالى هو اسم (الله) تبارك وتعالى يتعلمه
بالإيمان الكاذبة كقوله (والله لقد فعلت كذا وكذا والله
ما فعلت كذا) وكذلك القرآن يسمع الصبي ممن يعيش معهم
أنه كلام الله تعالى ولا يعقل معنى ذلك ثم لا يعرف من
تعظيم القرآن الا ما يعظمه به سائر المسلمين الذين يتربى بينهم
وذلك بامرين (أحدهما) اعتقاد أن آية كذا اذا كتبت وحيت

بماء وشربه صاحب مرض كذا يشفى وأن من حمل القرآن لا يقربه جن ولا شيطان ويبارك له في كذا وكذا إلى غير ذلك مما هو مشهور ومعروف للامة اكثر مما هو معروف للخاصة . ومع صرف النظر عن صحة هذا وعدم صحته نقول إن فيه مبالغة في التعظيم عظيمة جداً ولكنها (وبالأسف) لا تزيد عن تعظيم التراب الذي يؤخذ من بعض الاضرحه ابتغاء هذه المنافع والفوائد نفسها . ونحو هذا ما يعلق على الاطفال من التعاويذ والتنجيس كالحرق والعظام والتائم المشتملة على الطلسمات والكلمات العجمية المنقولة عن بعض الامم الوثنية . هذا الضرب من تعظيم القرآن نسميه اذا جرينا على سنة القرآن عبادة للقرآن لا عبادة لله به (ثانيهما) الهزّة والحركة المخصوصة والكلمات المعلومه التي تصدر ممن يسمعون القرآن اذا كان القارئ رخيماً الصوت حسن الأداء عارفاً بالتطريب على أصول النغم والسبب في هذه اللذة والنشوة هو حسن الصوت والنغم بل أقوى سبب لذلك هو بعد السامع عن فهم القرآن وأغني بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصديه أساليب القرآن بعجائبها وتملكه مواضعها فتشغله عما بين يديه

مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الاعمى . من الكتب
أخذاً جافاً لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور
ولطف الوجدان اللذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر .
لهذا كله يمكننا أن نقول ان الجاهلية اليوم أشد من الجاهلية
والضالين في زمن النبي صلى الله عليه وسلم لان من أولئك من قال
الله تعالى فيهم (يعرفونه كما يعرفون ابناءهم) ومعرفة الحق أمر
عظيم شريف نعم ربما كان أثم صاحبها مع الجحود أشد ولكنه
يكون دائماً ملوماً من نفسه على الاعراض عن الحق وهذا
اللوم يزل ما في نفسه من الاصرار على الباطل

كان البدوي راعي الغنم يسمع القرآن فيخر له ساجداً لما
عنده من رقة الاحساس ولطف الشعور فهل يقاس هذا
بأي متعلم اليوم؟ . أرايت أهل جزيرة العرب كيف انضوا
الى الاسلام بجاذبية القرآن لما كان لهم من رقة المدارك التي
كانت سبب الانجذاب الى الحق . وأشار الاستاذ هنا الى البنت
الاعرابية التي فطنت لاشتمال الآية الآتية على أمرين ونهيين
وبشارتين . ومجمل الخبر أن الاصمعي قال سمعت بنتاً من
الاعراب خماسية أو سداسية تُنشد

استغفر الله لذنبى كله فقلت انساناً بغير حله
 مثل غزال ناعم في دله وانتصف الليل ولم أصله
 فقلت لها قاتلك الله ما أفصحك فقالت ويحك أيعده هذا
 فصاحة مع قوله تعالى « وأوحينا الى أم موسى أن أرضعيه فاذا
 خفت عليه فالقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه اليك
 وجعلوه من المرسلين » فجمع في آية واحدة بين أمرين
 ونهيين وبشارتين

لما رأى علماء المسلمين في الصدر الاول تأثير القرآن في
 جذب قلوب الناس إلى الاسلام وأن الاسلام لا يحفظ الا به
 ولما كان العرب قد اختلطوا بالعجم وفهم من دخل في الاسلام
 من الاعاجم ما فهمه علماء العرب أجمع كل على وجوب حفظ
 اللغة العربية ودوتوا لها الدواوين ووضعوا لها الفنون . نعم
 إن الاشتغال بلغة الامة وآدابها فضيلة في نفسه ومادة من
 مواد حياتها ولا حياة لامة ماتت لغتها ولكن لم يكن هذا
 وحده هو الحامل لسلف الامة على حفظ اللغة بمفرداتها
 وأساليبها وآدابها وإنما الحامل لهم على ذلك ما ذكرنا . ألف
 العلامة الاسفراينى كتابا في الفرق ختمه بذكر أهل السنة

ومزاياهم وعدة من فضائلهم التي امتازوا بها على سائر الفرق
التبريز في اللغة وآدابها وبين ذلك بأجلى بيان . فإن هذه المزايا
وأين آثارها في فهم القرآن بل وفهم ما دونه من الكلام البليغ؟
وقد بينا وجه الحاجة في التفسير الى تحصيل ملكة الذوق
العربي والى غير ذلك من الامور التي يتوقف عليها فهم القرآن
﴿ سورة الفاتحة ﴾

سميت الفاتحة فاتحة لأنها أول القرآن في هذا الترتيب
(وتكلم عن لفظ الفاتحة وعن التاء فيه) وتسمى أم الكتاب
وقالوا إن حديث النبي عن تسميتها هذا الاسم موضوع .
ثم قال . يتكلمون عند الكلام عن السور على المكي والمدني
وهو يفيد في معرفة الناسخ والمنسوخ وليس في الفاتحة ناسخ
ولا منسوخ وهي مكية خلافاً لمجاهد فالاجماع على أن الصلاة
كانت بالفاتحة لأول فرضيتها ولا ريب أن ذلك كان في مكة
وقالوا هي المراد بالسبع المثاني في قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعاً
من المثاني والقران العظيم) وهو مكي بالنص . وقال بعضهم
انها نزلت مرتين مرة بمكة عند فرضية الصلاة وأخرى بالمدينة
حين حوت القبله وكان صاحب هذا القول اراد الجمع بين

القولين وليس بشيء . وقال كثيرون انها اول سورة انزلت بتمامها
ثم رجح الاستاذ الحكيم انها اول ما نزل على الاطلاق ولم
يستثن قوله تعالى (اقرأ باسم ربك) ونزع في الاستدلال على
ذلك منزعا غريباً في حكمة القران وفقه الدين فقال ما مثاله
ومن آية ذلك ان السنة الالهية في هذا الكون سواء
كان كون ايجاد او كون تشريع ان يظهر سبحانه الشيء مجملاً
ثم يتبعه التفصيل بعد ذلك تدريجاً وما مثل الهدايات الالهية
الامثلة البذرة والشجرة العظيمة فهي في بدايتها مادة حياة
تحتوي على جميع اصولها ثم تنمو بالتدرج حتى تسبق فروعها بعد
ان تعظم دوحها ثم تجود عليك بثمرها . والفاتحة مشتملة على
محمل مافي القران وكل مافيه تفصيل للاصول التي وضعت فيها
ولست اعنى بهذا ما يعبرون عنه بالاشارة ودلالة الحروف
كقولهم ان اسرار القران في الفاتحة واسرار الفاتحة في البسملة
واسرار البسملة في الباء واسرار الباء في نقطتها فان هذا لم يثبت
عن النبي صلى الله عليه وسلم واصحابه عليهم الرضوان ولا هو
معقول في نفسه وانما هو من مخترعات الغلاة الذين ذهب
بهم الغلو إلى اعدام القران خاصته وهي البيان

(قال) وبيان ما أريد أن مانزل القرآن لاجله أمور
 (أحدها) التوحيد لان الناس كانوا كلهم وثنيين وان كان بعضهم
 يدعي التوحيد (ثانيا) وعد من أخذ به وتبشيره بحسن المثوبة
 ووعيد من لم يأخذ به وإنذاره بسوء العقوبة . والوعد يشمل
 ما للامة وما للأفراد فيعم نعم الدنيا والآخرة وسعادتهما والوعيد
 كذلك يشمل نقمهما وشقاءهما فقد وعد الله المؤمنين
 بالاستخلاف في الارض والعزة والسلطان والسيادة وأوعد
 المخالفين بالحرز والشقاء في الدنيا كما وعد في الآخرة بالجنة
 والنعيم وأوعد بنار الجحيم (ثالثا) العبادة التي تحيي التوحيد
 في القلوب وتثبتته في النفوس (رابعا) بيان سبيل السعادة
 وكيفية السير فيه الموصل الى نعم الدنيا والآخرة (خامسا)
 قصص من وقف عند حدود الله تعالى وأخذ بأحكام دينه
 وأخبار الذين تعدوا حدوده ونبذوا أحكام دينه ظهريا لاجل
 الاعتبار واختيار طريق المحسنين

هذه هي الامور التي احتوى عليها القرآن وفيها حياة
 الناس وسعادتهم الدنيوية والأخرية والفاتحة مشتملة عليها
 اجمالا بغير ما شك ولا ريب . فاما التوحيد ففي قوله تعالى (الحمد

لله رب العالمين) لانه ناطق بان كل حمد وثناء يصدر عن نعمة ما
فهو له تعالى ولا يصح ذلك الا اذا كان سبحانه مصدر كل
نعمة في الكون تستوجب الحمد ومنها نعمة الخلق والايجاد
والتربية والتنمية ولم يكتف باستلزام العبارة لهذا المعنى فصرح
به بقوله (رب العالمين) ولفظ (رب) ليس معناه المالك
والسيد فقط بل فيه معنى التربية والانماء وهو صريح
بان كل نعمة يراها الانسان في نفسه وفي الآفاق منه
عز وجل فليس في الكون متصرف بالايجاد والاشقاء
والاسعاد سواه

التوحيد أهم ما جاء لاجله الدين ولذلك لم يكتف في الفاحة
بمجرد الاشارة اليه بل استكماله بقوله (اياك نعبد و اياك
نستعين) فاجتث بذلك جذور الشرك والوثنية التي كانت
فاشية في جميع الامم وهي اتخاذ اولياء من دون الله تعقد لهم
السلطة الغيبية ويدعون لذلك من دون الله ويستعان بهم على
قضاء الحوائج في الدنيا ويتقرب بهم الى الله زلفى وجميع ما في
القرآن من آيات التوحيد ومقارعة المشركين هو تفصيل لهذا
الاجمال

واما الوعد والوعيد فالأول منهما مطويٌّ في (بسم الله الرحمن الرحيم) فذكرُ الرحمة في أول الكتاب — وهي التي وسعت كل شيء — وعدُّ بالاحسان لاسيما وقد كررها مرة ثانية تنبيها لنا على أن أمره إيانا بتوحيده وعبادته رحمة منه سبحانه بنا لأنه لمصالحتنا ومنفعتنا . وقوله تعالى (مالك يوم الدين) يتضمن الوعد والوعيد معاً لأن معنى الدين الخضوع أى إن له تعالى في ذلك اليوم السلطان المطلق والسيادة التي لا نزاع فيها لاحقيقة ولا ادعاء وأن العالم كله يكون فيه خاضعاً لعظمته ظاهراً وباطناً يرجو رحمته ويخشى عذابه وهذا يتضمن الوعد والوعيد . أو معنى الدين الجزاء وهو إما ثواب للمحسن واما عقاب للمسيء وذلك وعد ووعيد . وزد على ذلك أنه ذكر بعد ذلك (الصراط المستقيم) وهو الذى من سلكه فازومن تنكبته هلك وذلك يستلزم الوعد والوعيد

وأما العبادة فبعد أن ذكرت في مقام التوحيد بقوله «اياك نعبد واياك نستعين» أوضح معناها بعض الإيضاح بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) أى انه قد وضع لنا صراطاً سيبينه ويحدده ويكون مناط السعادة في الاستقامة عليه والشقاء في

الانحراف عنه وهذه الاستقامة عليه هي هداية العبادة ويشبه هذا قوله تعالى (والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) فالتواصي بالحق والصبر هو كمال العبادة بعد التوحيد . والفاتحة بمجملتها تنفخ روح العبادة في المتدبر لها وروح العبادة هي إشراب القلوب خشية الله وهيبته والرجاء لفضله لا الأعمال المعروفة من فعل وكفٍ وحرركات اللسان والأعضاء فقد ذكرت العبادة في الفاتحة قبل ذكر الصلاة وأحكامها والصيام وأيامه وكانت هذه الروح في المسلمين قبل أن يكافوا بهذه الاعمال البدنية وقبل نزول أحكامها التي فصلت في القرآن تفصيلا ما وانما الحركات والاعمال مما يتوسل به الى حقيقة العبادة ونحو العبادة الفكر والعبارة

وأما الاخبار والقصص ففي قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم) تصريح بأن هنالك قوما تقدموا وقد شرع الله شرائع لهدايتهم وصالح يصيح ألا فانظروا في الشؤون العامة التي كانوا عليها واعتبروا بها . كما قال تعالى لنبيه يدعو الى الاقتداء بمن كان قبله من الانبياء (أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)

حيث بين أن القصص إنما هو للعظة والاعتبار . وفي قوله تعالى
 (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) تصريح بأن من دون المنعم
 عليهم فريقان فريق ضلَّ عن صراط الله وفريق جاحده وعاند
 من يدعو إليه فكان محفوفاً بالغضب الإلهي والحزى في هذه
 الحياة الدنيا . وبقى القرآن يفصل لنا في أخبار الأمم هذا
 الاجمال على الوجه الذي يفيد العبرة فيشرح حال الظالمين الذين
 قاوموا الحق وحال الذين حافظوا عليه وصبروا على ما أصابهم
 في سبيله .

فتبين من مجموع ما تقدم أن الفاتحة قد اشتملت إجمالاً
 على الأصول التي يفصلها القرآن تفصيلاً فكان انزالها أولاً
 موافقاً لسنة الله تعالى في الإبداع . وعلى هذا تكون الفاتحة
 جديرة بأن تسمى (أم الكتاب) كما نقول إن النواة أم النخلة
 فإن النواة مشتملة على شجرة النخلة كلها حقيقة لا كما قال
 بعضهم إن المعنى في ذلك أن الأم تكون أولاً ويأتي بعدها
 الأولاد



﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

لا أذكر ماقاله الاستاذ في البسمة من حيث لفظها
واعرابها وهل هي آية أو جزء آية ومن الفاتحة أوليست منها
فان الخلاف في ذلك مشهور وقد اختصر الاستاذ القول فيه
اختصاراً وقال انها على كل حال من القرآن فتكلم عليها كسائر
الآيات

القرآن امامنا وقدوتنا فافتاحه بهذه الكلمة ارشاد
لنا بأن نفتح أعمالنا بها فما معنى هذا؟ ليس معناه أن نفتح
أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك
أو الاستعانة به بل أن نقول هذه العبارة (بسم الله الرحمن الرحيم)
فإنها مطلوبة لذاتها

عند ما تقول انى اذكر اسم الله تعالى كالعزيز والحكيم
لا تعنى انك تذكر لفظ (اسم) فلو كان قولهم ان المراد من
الابتداء بالكلمة « بسم الله » التبرك باسم الله هو الصواب
لكان ينبغي ان يكون قولك (بالله الرحمن الرحيم) مثل
(بسم الله الرحمن الرحيم) وقوله تعالى (باسم الله مجراها

ومرساها) وقد قال بعضهم إن الاضافة ههنا للبيان أى أفتح
 كلامي باسم هو الله ولكن هذا يقتضى أن يكون لفظ الرحمن
 الرحيم وارداً على اللفظ وهو غير صحيح وإرادة أن الاسماء
 الثلاثة هى المبينة للفظ الاسم تحمل ظاهرها المقصود اذا
 من هذا التعبير ؟

مثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم ومنهم العرب
 وهو أن الواحد منهم إذا أراد أن يفعل أمراً ما لاجل أمير
 أو عظيم بحيث يكون متجرداً من نسبته اليه ومنسلخاً عنه
 يقول أعمله باسم فلان، ويذكر اسم ذلك الامير أو السلطان
 لان اسم الشئ دليل وعنوان عليه

فاذا كنت أعمل عملاً لا يكون له وجود ولا عنه أثر، لولا
 السلطان الذى به أمر، أقول إن عملي هذا باسم السلطان أى
 أنه معنون باسمه ولولاه لما عملته. فمعنى ابتدئ عملي (بسم الله
 الرحمن الرحيم) أنتى عمل بأمره وله لاي ولا اعمله باسمي
 مستقلاً به على انى فلان فكأنى أقول ان هذا العمل لله لا لفظ
 نفسي وفيه وجه آخر وهو أن القدرة التى انشأت بها العمل هى
 من الله تعالى فلولا ما منحني منها لم أعمل شيئاً فلم يصدر عنى

هذا العمل الا باسم الله ولم يكن باسمي اذ لولا ما آتاني من القوة عليه لم أستطع أن آتيه وقد تم هذا المعنى بلفظ (الرحمن الرحيم) كما هو ظاهر . وحاصل المعنى أنني أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمي بل هو باسمه تعالى لاني استمدد القوة والعناية منه وارجو إحسانه عليه فلولا له لم أقدر عليه ولم أعمله بل وما كنت عاملاً له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله فلفظ الاسم معناه مراد ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً وكذلك كل من لفظ الرحمن والرحيم . وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات واقربه اليكم اليوم ما ترونه في المحاكم النظامية حيث يتدوّن الاحكام قولاً وكتابة باسم السلطان فلان أو الخديو فلان ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الاحكام والآيات وغيرها هو لله ومنه ليس لأحد غير الله فيه شيء

واختصر الاستاذ في الكلام على لفظ اسم ولفظ الجلالة لان الكلام فيهما مشهور . قال والرحمن والرحيم مشتقان من الرحمة وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه ويحمله على الاحسان الى غيره وهو محال على الله تعالى بالمعنى المعروف عند البشر

لأنه في البشر ألم في النفس شفاؤه الاحسان والله تعالى منزه
عن الآلام والانفعالات فالمعنى المقصود بالنسبة اليه من الرحمة
أثرها وهو الاحسان . وقد مشى الجلال في تفسيره وتبعه
الصبان على أن الرحمن والرحيم بمعنى واحد وان الثاني تأكيد
للأول ومن العجيب أن يصدر مثل هذا القول عن عالم مسلم
وما هي الا غفلة نسأل الله أن يسامح صاحبها

(قال الاستاذ) وأنا لا أجزئ لمسلم أن يقول في نفسه
أو بلسانه ان في القران كلمة تغاير اخرى ثم تأتي للمجرد تأكيد
غيرها بدون ان يكون لها في نفسها معنى تستقل به نعم قد يكون
في معنى الكلمة ما يزيد معنى الاخرى تقريراً او ايضاحاً ولكن
الذي لا اجزئه ان يكون معنى الكلمة هو عين معنى الاخرى
بدون زيادة ثم يؤتى بها للمجرد التأكيد لا غير بحيث تكون
مما يسمى بالترادف في عرف اهل اللغة فان ذلك لا يقع الا
في كلام من يرمي في لفظه الى مجرد التثنية والتزويق وفي
العربية طرق للتأكيد ليس هذا منها واما ما يسمونه بالحرف
الزائد الذي يأتي للتأكيد فهو حرف وضع لذلك ومعناه هو
التأكيد وليس معناه معنى الكلمة التي يؤكد بها فالباء في قوله تعالى

«وكفي بالله شهيداً» تؤكد معنى اتصال الكفاية بجانب الله جل شأنه بذاتها ومعناها الذي وضعت له ومعنى وصفها بالزيادة انها كذلك في الاعراب وكذلك معنى من في قوله «وما هم بضارين به من أحد الا باذن الله» ونحو ذلك. اما التكرار للتأكيد أو التقرير أو التهويل فامر سائغ في ابلغ الكلام عند ما يظهر ذلك القصد منه كتكرار جملة «فبأي آلاء ربكما تكذبان» ونحوها عقيب ذكر كل نعمة وهي عند التأمل ليست مكررة فان معناها أفهذه النعمة تكذبان وهكذا كل ما جاء في القرآن على هذا النحو

والجمهور على أن معنى الرحمن المنعم بجلائل النعم ومعنى الرحيم المنعم بدقائقها وبعضهم يقول أن الرحمن هو المنعم بنعم عامة تشمل الكافرين مع غيرهم والرحيم المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين وكل هذا تحكم في اللغة مبني على أن زيادة المبني تدل على زيادة المعنى ولكن الزيادة تدل على زيادة الوصف مطلقاً فصفة الرحمن تدل على كثرة الاحسان الذي يعطيه سواء كان جليلاً أو دقيقاً وأما كون افراد الاحسان التي يدل عليها اللفظ الاكثر حروفاً أعظم من افراد الاحسان التي يدل عليها

اللفظ الأقل حروفاً فهو غير معنيّ ولا مراد. وقد قارب من قال ان معنى الرحمن المحسن بالاحسان العام ولكنّه أخطأ في تخصيص مدلول الرحيم بالمؤمنين ولعل الذي حمل من قال إن الثاني مؤكّد للاول على قوله هذا هو عدم الاقتناع بما قالوه من التفرقة مع عدم التفطن لما هو أحسن منه

(قال الاستاذ) والذي أقول: ان صيغة فعلان تدل على

وصف فعليّ فيه معنى المبالغة كفعال وهو في استعمال اللغة للصفات العارضة كعطشان وغرثان وغضبان وأما صيغة فعيل فإنها تدل في الاستعمال على المعاني الثابتة كالأخلاق والسجايا في الناس كعلم وحكيم وحليم وجميل . والقرآن لا يخرج عن الأسلوب العربيّ البليغ في الحكاية عن صفات الله عز وجل التي تملو عن مماثلة صفات المخلوقين فلفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والاحسان ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والاحسان وعلى انها من الصفات الثابتة الواجبة . وبهذا المعنى لا يستغنى بأحد الوصفين عن الآخر ولا يكون الثاني مؤكّداً للاول فاذا سمع العربي وصف الله جل ثناؤه بالرحمن وفهم منه انه المفيض للنعم

فملاً لا يعتقد منه أن الرحمة من الصفات الواجبة له دائماً لأن الفعل قد ينقطع اذا كان لم يكن عن صفة لازمة ثابتة وان كان كثيراً فعند ما يسمع لفظ الرحيم يكمل اعتقاده على الوجه الذي يليق بالله تعالى ويرضيه سبحانه ويعلم ان لله صفة ثابتة هي صفة الرحمة التي عنها يكون أثرها وان كانت تلك الصفة على غير مثال صفات المخلوقين ويكون ذكرها بعد الرحمن كذكر الدليل بعد المدلول ليقوم برهاناً عليه

﴿ الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم ﴾

تعلمون أن معنى الحمد الثناء باللسان وقيدوه بالجميل لأن كلمة (ثناء) تستعمل في المدح والذم جميعاً يقال أثنى عليه شراً كما يقال أثنى عليه خيراً ويقولون إن (أل) التي في الحمد هي للجنس في أي فرد من أفرادها لا للاستغراق ولا للعهد المخصوص لأنه لا يصر إلى كل منهما في فهم الكلام الإبدليل وهو غير موجود في الآية

ومعنى كون الحمد لله تعالى بأى نوع من أنواعه هو أن أى شئ يصح الحمد عليه فهو مصدره واليه مرجعه فالحمد له على كل حال

وهذه الجملة خبرية ولكنها استعملت لإنشاء الحمد .
فأما معنى الخبرية فهو إثبات أن الثناء الجميل في أي أنواعه
تحقق فهو ثابت له تعالى وراجع إليه لأنه متصف بكل ما يحمده
عليه الحامدون فصفاته أجمل الصفات واحسانه عمّ جميع
الكائنات ولأن جميع ما يصح أن يتوجه إليه الحمد مما سواه
فهو منه جلّ ثناؤه اذ هو مصدر الكون كله فيكون له ذلك
الحمد أوّلاً وبالذات . والخالصة أن أيّ حمد يتوجه الى محمود ما
فهو لله تعالى سواء لاحظه الحامد أو لم يلاحظه وأما معنى
الإنشائية فهو أن الحامد جعلها عبارة عما وجهه من الثناء الى
الله تعالى في الحال « رب العالمين » يشعر هذا الوصف ببيان
وجه الثناء المطلق ومعنى الرب السيد المرابي الذي يسوس
مسوده ويربيه ويدبره و (العالمين) جمع عالم جمعه جمع المذكر
الماقل تغليبا وأراد به جميع الكائنات الممكنة أي أنه رب كل
ما يدخل في مفهوم لفظ العالم . وما جمعت العرب لفظ العالم
هذا الجمع الا لتسكتة تلاحظها فيه وهي أن هذا اللفظ لا يطلق
عندهم على كل كائن وموجود كالحجر والتراب وإنما يطلقونه
على كل جملة متميزة لأفرادها صفات تقرّبها من العاقل الذي

جمعت جمعه ان لم تكن منه فيقال عالم الانسان وعالم الحيوان
وعالم النبات . وأتم ترون أن هذه الاشياء هي التي يظهر فيها
معنى التربية الذي يعطيه لفظ رب لأن فيها مبدأها وهو الحياة
والتغذي والتوالد وهذا ظاهر في النبات لاسيما لمن يقرأ شيئاً
من علمه كما هو ظاهر في الحيوان . ولقد كان السيد رحمه الله
تعالى يقول الحيوان شجرة قطعت رجلها من الارض فهي
تمشي والشجرة حيوان ساخت رجلاه في الارض فهو قائم
في مكانه يأكل ويشرب وان كان لا ينام ولا يفعل

« الرحمن الرحيم » تقدم معناها وتقي الكلام في اعادتهما
والنكته فيها ظاهرة وهي أن تربيته للعالمين ليست لحاجة به
اليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة وانما هي لعموم رحمته وشمول
إحسانه . وثم نكته أخرى وهي أن البعض يفهم من معنى
الرب الجبروت والقهر فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه
ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال فذكر الرحمن وهو المفيض
لأنهم بسعة وتجدد لا منتهى لهما والرحيم الثابت له وصف الرحمة
لا يزاله أبداً فكان الله تعالى أراد أن يتجنب إلى عباده فعرّفهم
أن ربوبيته لهم ربوبية رحمة واحسان ليعلموا أن هذه الصفة

هي التي ربما يرجع اليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته منشحة صدورهم مطمئنة قلوبهم ولا ينافي عموم الرحمة وسبقها ما شرعه الله من العقوبات في الدنيا وما أعدّه من العذاب في الآخرة للذين يتعدون الحدود ويتهككون الحرمات فانه وان سُمِّيَ قهراً بالنسبة لصورته ومظهره فهو في حقيقته وغايته من الرحمة لأن فيه تربية للناس وزجراً لهم عن الوقوع فيما يخرج عن حدود الشريعة الآلية وفي الانحراف عنها شقاؤهم وبلاؤهم وفي الوقوف عندها سعادتهم ونعيمهم والوالد الرؤف يربي ولده بالترغيب فيما ينفعه والاحسان عليه إذا قام به وربما لجأ الى التهيب والعقوبة اذا اقتضت ذلك الحال والله المثل الأعلى لا إله الا هو واليه يرجعون

﴿ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴾

بين الاستاذ أولاً أن في الآية قراءتين وذكر من قرأ (مالك) ومن قرأ مالك والفرق بينهما وقال . قال بعضهم ان قراءة مالك أبلغ لأن هذا اللفظ يفهم منه معنى السلطان والقوة والتدبر وقال آخرون ان القراءة الاخرى أبلغ لان الملك هو الذي يدبر أعمال رعيته العامة ولا تصرف له بشئ من شؤونهم

الخاصة . وانما تظهر هذه التفرقة في عبد مملوك في مملكة لها سلطان ولا ريب ان مالكة هو الذي يتولى جميع شؤونه دون سلطانه . و (الدين) يطلق في اللغة على المكافأة وورد (كما تدن) وقال الشاعر

ولم يبق سوى العدو ن دناهم كما دانوا
وعلى الجزاء وهو قريب من معنى المكافأة . وعلى الطاعة
وعلى الإخضاع وعلى السياسة يقال (دين فلان فلانا) أي
تولى سياسته وهو قريب من معنى الإخضاع وعلى الشريعة
وما يؤخذ العباد به من التكاليف . والمناسب هنا من هذه
المعاني الجزاء والخضوع

وانما قال « يوم الدين » ولم يقل (الدين) لتعريفنا بأن
لدين يوماً ممتازاً عن سائر الايام وهو اليوم الذي يلتقى فيه كل
عامل عمله ويوفى جزاءه . ولسائل أن يسأل : أليست كل الايام
أيام جزاء وكل ما يلاقه الناس في هذه الحياة من البؤس هو
جزاء على تفریطهم في أداء الحقوق والقيام بالواجبات التي
عليهم . والجواب بلى إن ايماننا التي نحن فيها قد تقع فيها الجزاء
على أعمالنا ولكن ربما لا يظهر لاربابه الاعلى بعضها دون جميعها .

والجزاء على التفريط في العمل الواجب انما يظهر في الدنيا ظهوراً تاماً بالنسبة لمجموع الأمة لا لكل فرد من الافراد فما من أمة انحرفت عن صراط الله المستقيم ولم تراع سنته في خليقته الا وأحل بها العدل الالهي ما تستحق من الجزاء كالفقر والذل وفقد العزة والسلطة . واما الافراد فاننا نرى كثيراً من المسرفين الظالمين يقضون أعمالهم منغمسين في الشهوات واللذات نعم ان ضماثرهم توبخهم أحيانا وأنهم لا يسلمون من المنغصات وقد يصيبهم النقص في أموالهم وعافية أبدانهم وقوة عقولهم ولكن هذا كله لا يقابل بعض أعمالهم القبيحة لاسيما الملوك والامراء الذين تشقى بأعمالهم السيئة أممٌ وشعوب كذلك نرى من المحسنين في أنفسهم وللناس من يبتلى بهضم الحقوق ولا ينال من الجزاء على عمله شيئاً مما يستحقه وان كان قد ينال من الجزاء رضى نفسه وسلامة اخلاقه وصحة ما يكاته . ولكن ذلك ليس كل ما يستحق . وفي ذلك اليوم يوفى كل فرد من أفراد العالمين جزاءه كاملاً لا ينقصه شيء منه كما قال الله تعالى « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »

علمنا الله تعالى انه رحمن رحيم ليجذب قلوبنا اليه
ولكن هل يشعر كل عباده بهذه المنة فينجذبوا اليه الانجذاب
المطلوب؟ كلا أليس فينا من يسلك كل سبيل لا يبالي بمستقيم
ومعوج؟ بلى ولهذا أعقب سبحانه ذكر الرحمة بذكر الدين
فعرّفنا انه يدين العباد ويجازيهم على أعمالهم فكان من رحمته
بعباده أن ربّاهم بنوعي التربية كليهما الترغيب والترهيب كما تشهد
بذلك آيات القرآن الكريمة « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ .
وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

ماهي العبادة؟ يقولون هي الطاعة مع غاية الخضوع وما
كل عبارة تمثل المعنى تمام التمثيل، وتجليه للافهام واضعاً لا يقبل
التأويل، فكثيراً ما يفسرون الشيء ببعض لوازمه ويعرّفون
الحقيقة برسومها بل يكتفون أحياناً بالتعريف اللفظي ويدينون
الكلمة بما يقرب من معناها ومن ذلك هذه العبارة التي
شرحوا بها معنى العبادة فإن فيها اجمالاً وتساهاً . واننا اذا
تبعنا آي القرآن وأساليب اللغة واستعمال العرب لعبد وما يماثلها
ويقاربها في المعنى نخضع وخنع وأطاع وذلك نجد أنه لا شيء

من هذه الالفاظ يضاهي (عبد) ويحل محلها ويقع موقعها
ولذلك قالوا ان لفظ (العباد) مأخوذ من العبادة فتكثر اضافته
الى الله تعالى . ولفظ (العبيد) تكثر اضافة الى غير الله تعالى
لانه مأخوذ من العبودية بمعنى الرِّق و فرقٌ بين العبادة
والعبودية بذلك المعنى ومن هنا قال بعض العلماء ان العبادة
لا تكون في اللغة الا لله تعالى ولسكن استعمال القرآن يخالفه .
يغلو العاشق في تعظيم معشوقه والخضوع له غلوًّا كبيراً حتى يفنى
هواه في هواه وتذوب إرادته في إرادته ومع ذلك لا يسمى
خضوعه هذا عبادة بالحقيقة ويبالغ كثير من الناس في تعظيم
الرؤساء والملوك والامراء فترى من خضوعهم لهم وتحريرهم
مراضاتهم ما لا تراه من المتحنثين القانتين فضلا عن سائر
العابدين ولم يكن العرب يسمون شيئاً من هذا الخضوع عبادة
فما هي العبادة إذا ؟ تدل الاساليب الصحيحة والاستعمال
العربي الصراح على ان العبادة ضرب من الخضوع بالغ حد
النهاية ناشئ عن استشعار القلب عظمة للمعبود لا يعرف
منشأها . واعتقاده بسلطه لا يدرك كنهها وما هيتهما . وقصارى
ما يعرفه منها أنها محيطه به ولكنها فوق ادراكه . فمن ينتهى

الى أقصى الذل لملك من الملوك لا يقال إنه عبده وإن قبل مواعظ
 أقدامه مادام سبب الذل والخضوع معروفاً وهو الخوف من
 ظلمه المعهود . أو الرجاء بكرمه المحدود . اللهم الا بالنسبة للذين
 يعتقدون أن الملك قوة غيبية سماوية أفيضت على الملوك من
 الملائكة الأعلیٰ و اختارتهم للاستعلاء على سائر أهل الدنيا ، لأنهم
 أطيب عنصراً ، وأكرم جوهرأً ، وهؤلاء هم الذين انتهى بهم
 هذا الاعتقاد ، الى الكفر والإلحاد ، فاتخذوا الملوك آلهة وأرباباً
 وعبدهم عبادة حقيقية . للعبادة صور كثيرة في كل دين من
 الأديان شرعت لتذكير الأتسان بذلك الشعور بالسلطان الإلهي
 الاعلى الذي هو روح العبادة وسرّها ولكل عبادة من العبادات
 الصحيحة أثر في تقويم أخلاق القائم بها وتهذيب نفسه والأثر
 إنما يكون عن ذلك الروح والشعور الذي قلنا انه منشأ التعظيم
 والخضوع فاذا وجدت صورة العبادة خالية من هذا المعنى لم تكن
 عبادة كما أن صورة الانسان وتمثاله ليس انساناً

خذ اليك عبادة الصلاة . مثلاً وانظر كيف أمر الله
 باقامتها دون مجرد الاتيان بها واقامة الشيء هي الاتيان به مقوماً
 كاملاً يصدر عن علمته وتصدر عنه آثاره . وآثار الصلاة ونتائجها

هي ما أنبأنا الله تعالى بها بقوله « ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » وقوله عز وجل « إن الانسان خلق هَلْوَعا اذا مسه الشركان جزوعا واذا مسه الخير منوعاً الا المصلين » وقد توعد الذين يأتون بصورة الصلاة من الحركات والانفاظ مع السهو عن معنى العبادة وسرّها فيها المؤدي الى غايتها بقوله « فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » فسمّاهم مصلين لانهم أتوا بصورة الصلاة ووصفهم بالسهو عن الصلاة الحقيقية التي هي توجه القلب الى الله تعالى المذكّر بخشيته والمشعر للقلوب بعظيم سلطانه ثم وصفهم بأثر هذا السهو وهو الرياء ومنع الماعون . وذكر الاستاذ أن الرياء ضربان رياء النفاق وهو العمل لاجل رؤية الناس ورياء العادة وهو العمل بحكمها من غير ملاحظة معنى العمل وسره وفائده ولا ملاحظة من يعمل له ويتقرب اليه به وهو ما عليه أكثر الناس فإن صلاة أحدهم في طور الرشد والعقل هي عين ما كان يحاكي به أباه في طور الطفولية عند ما يراه يصلي — يستمر على ذلك بحكم العادة من غير فهم ولا عقل وليس لله شيء في هذه الصلاة . وقد ورد في أحاديث كثيرة أن من لم

تنهيه صلواته عن الفحشاء والمنكر لم يزد من الله إلا بعداً وأنها تلفُّ كما يلف الثوب البالي ويضرب بها وجهه . وأما الماعون فهو المعونة والخير الذي تقدم في الآية الاخرى أن من شأن الانسان أن يكون منوعاً له الا المصلين

والاستعانة هي طلب المعونة والمعونة هي سد العجز والمساعدة على اتمام العمل الذي يعجز عنه المستعين بنفسه ثم تكلم الاستاذ على حصر العبادة والاستعانة في الله تعالى الذي دلَّ عليه تقديم المفعول (اياك) على الفعل فقال ما مثاله

أمرنا الله تعالى بان لا نعبد غيره لان السلطنة الغيبية التي هي وراء الاسباب ليست الا له دون غيره فلا يشاركه فيها أحد فيعظم تعظيم العبادة وأمرنا بان لا نستعين بغيره أيضاً وهذا يحتاج الى البيان لانه أمرنا أيضاً في آيات اخرى بالتعاون « وتعاونوا على البر والتقوى » فما معنى الاستعانة به مع ذلك ؟ الجواب أن كل عمل يعمله الانسان تتوقف ثمرته ونجاحه على حصول الاسباب التي اقتضت الحكمة الالهية أن تكون مؤديةً اليه وانتفاء الموانع التي من شأنها بمقتضى الحكمة أن

تحول دونه وقد مكن الله تعالى الانسان بما أعطاه من العلم والقوة من دفع بعض الموانع وكسب بعض الاسباب وحجب عنه البعض الآخر فيجب علينا أن نقوم بما في استطاعتنا من ذلك ونبدل في إتقان أعمالنا كل ما نستطيع من حول وقوة وأن نتعاون ويساعد بعضنا بعضاً على ذلك ونفوض الأمر فيما وراء كسبنا الى القادر على كل شيء ونلجأ اليه وحده ونطلب المعونة المتممة للعمل والموصلة لثمرته منه سبحانه دون سواه إذ لا يقدر على ما وراء الاسباب الممنوحة لكل البشر على السواء إلا مسبب الاسباب ورب الارباب فقوله تعالى « واياك نستعين » متمم لمعنى قوله « اياك نعبد » لان الاستعانة بهذا المعنى فزاع من القلب الى الله وتعلق من النفس به وذلك من منح العباداة فاذا توجه العبد بها الى غير الله تعالى كانت ضرباً من ضروب العباداة الوثنية التي كانت ذائعة في زمن التنزيل وقبله وخُصت بالذكر لئلا يتوهم الجهلاء أن الاستعانة بمن اتخذوهم اولياء من دون الله واستعانو بهم فيما وراء الاسباب المكتسبة لعامة الناس هي كالاستعانة بسائر الناس في الاسباب العامة فأراد الحق جل شأنه ان يرفع هذا

اللبس عن عباده ببيان ان الاستعانة فيما هو في استطاعة الناس
بالناس انما هي ضرب من استعمال الاسباب المسنونة وما منزلتها
الا كمنزلة استعمال الآلات فيما هي آلات له بخلاف الاستعانة في
شؤون تفوت القدر والقوى المعروفة في متناول الفهم كالاستعانة
على شفاء المرض بما وراء الدواء وعلى غلبة العدو بما وراء العدة
والعدة فان ذلك مما لا يجوز الفرع به لغير الله تعالى صاحب
السلطان الاعظم على ما لا يصل اليه سلطان احد من العالم

وضرب الاستاذ مثلاً الزارع يبذل جهده في الحرث
والمدق وتسميد الارض وريها ويستعين بالله تعالى على اتمام
ذلك بمنع الآفات والجوائح السماوية او الارضية ومثل بالتاجر
يحدق في اختيار الاصناف ويمهر في صناعة الترويج ثم يتكل على
الله فيما بعد ذلك ثم قال ومن هنا تعلمون ان الذين يستعينون
باصحاب الاضرحة والقبور على قضاء حوائجهم وتيسير أمورهم
وشفاء أمراضهم ونماء حرثهم وزرعهم وهلاك أعدائهم وغير
ذلك من المصالح عن صراط التوحيد ناكبون، وعن ذكر
الله معرضون

أرشدتنا هذه الكلمة الوجيزة «واياك نستعين» الى

أمرين عظيمين هما معراج السعادة في الدنيا والآخرة . أحدهما أن نعمل الاعمال النافعة ونجتهد في إتقانها ما استطعنا لأن طلب المعونة لا يكون الا على عمل بذل فيه المرء طاقته فلم يوفّه حقه أو يخشى أن لا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وإكماله ومن وقع من يده القلم على المكتب لا يطلب المعونة من أحد على امساكه ومن وقع تحت عبثٍ ثقيل يعجز عن النهوض به وحده يطلب المعونة من غيره على رفعه بعد استفراغ القوة في الاستقلال به وهذا الامر هو مراقبة السعادة الدنيوية وركن من اركان السعادة الاخروية . وثانيهما ما أفاده الحصر من وجوب تخصيص الاستعانة بالله تعالى وحده فيما وراء ذلك وهو روح الدين وكمال التوحيد الخالص الذي يرفع نفوس معتقديه ويخلصها من رق الاغيار ويفتك إرادتهم من أسر الرؤساء الروحانيين . والشيوخ الدجالين ، ويُطلق عنائهم من قيد المهيمين الكاذبين . من الاحياء والميتين ، فيكون المؤمن مع الناس حراً خالصاً وسيداً كريماً . ومع الله عبداً خاضعاً « ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً »



﴿ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾

ذكر الاستاذ أولاً ما قالوه في معنى الهداية لغة من أنها الدلالة بلطف على ما يوصل الى المطلوب ثم بين أنواعها ومراتبها فقال ما مثاله . منح الله تعالى الانسان أربع هدايات يتوصل بها الى سعادته (اولها) هداية الوجدان الطبيعي والإلهام الفطري وتكون للاطفال منذ ولادتهم فإن الطفل بعد ما يولد يشعر بألم الحاجة الى الغذاء فيصرخ طالباً له بفطرتة وعند ما يصل الثدي الى فيه يلهم التقامه وامتصاصه (الثانية) هداية الحواس والمشاعر وهي متممة للهداية الاولى في الحياة الحيوانية ويشارك الانسان فيهما الحيوان الاعجم بل هو فيهما أكمل من الانسان فان حواس الحيوان وإلهامه بكملان له بعد ولادته بقليل بخلاف الانسان فان ذلك يكمل فيه بالتدرج في زمن غير قصير الأتراه عقيب الولادة لا تظهر عليه علامات ادراك الاصوات والمرئيات ثم بعد مدة يبصر واسكنه لقصر نظره يجهل تحديد المسافات فيحسب البعيد قريباً فيمديديه اليه ليتناوله وإن كان قمر السماء ولا يزال يغلط حسه حتى في طور الكمال

(الثالثة) هداية العقل . خلق الانسان ليعيش مجتمعاً ولم

يعط من الالهام والوجدان ما يكفي مع الحس الظاهر لهذه الحياة الاجتماعية كما أعطي النحل والنمل فان الله قد منحها من الالهام ما يكفيها لان تعيش مجتمعة يؤدي كل واحد منها وظيفة العمل لجميعها ويؤدي الجميع وظيفة العمل للواحد وبذلك قامت حياة أنواعها كما هو مشاهد

أما الانسان فلم يكن من خاصة نوعه أن يتوفر له مثل ذلك الالهام فبإيه الله هداية هي أعلى من هداية الحس والالهام وهي العقل الذي يصحح غلط الحواس والمشاعر ويبيّن أسبابه وذلك أن البصر يرى الكبير على البعد صغيراً ويرى العود المستقيم في الماء معوجاً والصفراوي يذوق الحلو مرّاً والعقل هو الذي يحكم بفساد هذا الإدراك

(الهداية الرابعة الدين) يغلط العقل في إدراكه كما تغلط الحواس وقد يهمل الانسان استخدام حواسه وعقله فيما فيه سعاده الشخصية والنوعية ويسلك بهذه الهدايات مسالك الضلال فيجعلها مسخرة لشهواته ولذاته حتى تورده موارد الهلكة . فاذا وقعت المشاعر في مزلق الزلل ، واسترقت الحظوظ والاهواء العقل فصار يستنبط لها ضروب الخيل ،

فكيف يتسنى للإنسان مع ذلك أن يعيش سعيداً؟ وهذه الحظوظ والأهواء ليس لها حد يقف الإنسان عنده وما هو بعائش وحده وكثيراً ما تتناول به الى ما في يد غيره فهي لهذا تقضي أن يعدو بعض أفرادها على بعض فيتنازعون ويتدافعون ويتجادلون ويتجادون ويتواثبون ويتناهبون حتى يفني بعضهم بعضاً ولا تغني عنهم تلك الهدايا شيئاً فاحتاجوا الى هداية ترشدهم في ظلمات أهوائهم اذا غلبت على عقولهم وتبين لهم حدود أعمالهم ليقفوا عندها ويكفوا أيديهم عما وراءها. ثم إن مما أودع في غرائز الإنسان الشعور بسلطة غيبية متسلطة على الأكوان ينسب اليها كل ما لا يعرف له سبباً لأنها هي الواهبة كل موجود ما به قوام وجوده وبأن له حياة وراء هذه الحياة المحدودة فهل يستطيع أن يصل بتلك الهدايا الثلاث الى تحديد ما يجب عليه لصاحب تلك السلطة الذي خلقه وسواه ووجهه هذه الهدايا وغيرها وما فيه سعادته في تلك الحياة الثانية. كلا إنه في أشد الحاجة الى هذه الهداية الرابعة — الدين — وقد منحه الله تعالى إياها

أشار القرآن الى أنواع الهداية التي وهبها الله تعالى للإنسان

في آيات كثيرة منها قوله تعالى « وهديناه النجدين » أى طريقى السعادة والشقاوة والخير والشر . قال الاستاذ : وهذه تشمل هداية الحواس الظاهرة والباطنة وهداية العقل وهداية الدين . ومنها قوله تعالى « وأما ثمود فهديناهم فاستجبوا لعمى على الهدى » أى دللناهم على طريقى الخير والشر فسلكوا سبيل الشر المعبر عنه بالعمى . وذكر غير هاتين الآيتين مما فى معناها ثم قال

ولكن بقي معنا هداية أخرى وهي المعبر عنها بقوله تعالى « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فليس المراد من هذه الهداية ما سبق ذكره فالهداية فى الآيات السابقة بمعنى الدلالة وهي بمنزلة إيقاف الأنسان على رأس الطريقين المهلك والمنجى مع بيان ما يؤدى اليه كل منهما وهي مما تفضل الله به على جميع أفراد البشر أما هذه الهداية فهي أخص من تلك والمراد بها إيمانهم وتوفيقهم للسير فى طريق الخير والنجاة مع الدلالة وهي لم تكن ممنوحة لكل أحد كالحواس والعقول وشرع الدين (١)

(١) هذا الفرق بين معني الهداية معروف فى اللغة وبه يحاب عن

ولما كان الانسان عرضة للخطأ والضلال في فهم الدين
 وفي استعمال الحواس والعقل على ما قدمنا كان محتاجاً الى
 المعونة الخاصة فأمرنا الله بطلبها منه في قوله « إِهْدِنَا الصِّرَاطَ
 الْمُسْتَقِيمَ » فمضى (اهدنا الصراط المستقيم) دلنا دلالة تصحبها
 معونة غيبية من لدنك تحفظنا بها من الضلال والخطأ .
 وما كان هذا أوّل دعاء علمنا الله تعالى إياه الا لأن حاجتنا
 إليه أشد من حاجتنا الى كل شئ سواه

ثم بين معنى الصراط (وهو الطريق) واشتقاقه وقراءة
 الصراط بالسين المهملة واشتقاقها على نحو ما في كتب اللغة
 والتفسير ومعنى المستقيم وهو ضدّ المعوجّ وقال : ليس المراد
 بمقابل المستقيم المعوجّ ذا المتعجّ والتعارج بل المراد كل ما فيه
 انحراف عن الغاية التي يجب أن ينتهي اليها . والمستقيم في عرف

التناقض الظاهري في قوله تعالى (وانك لتهدي الى صراط مستقيم) وقوله
 تعالى (انك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) وقوله
 تعالى (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) فالهداية التي
 أثبتها للنبي صلى الله عليه وسلم هي الدلالة على الخير والحق والتي نفاها
 عنه هي الثانية التي بمعنى الاعانة والتوفيق

الهندسة أقرب موصل بين طرفين وهذا المعنى لازم للمعنى اللغوي كما هو ظاهر بالبداهة وانما قلنا إن المراد بمقابل المستقيم كل ما فيه انحراف لأن كل من يميل ويحرف عن الجادة يكون أضل عن الغاية ممن يسير عليها في خطّ ذي تعارج لأن هذا الأخير قد يصل الى الغاية بعد زمن طويل ولكن الأول لا يصل اليها قط بل يزداد بعداً كلما أوغل في السير وانهمك فيه

وقد قالوا إن المراد بالصراط المستقيم الدين أو الحق أو العدل والحدود ونحن نقول إنه جملة ما يوصلنا الى سعادتي الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . لمَ سُمِّي الموصول الى السعادة من ذلك صراطاً وطريقاً ؟ خذ الحق مثلاً وهو الاعتقاد الصحيح بالله وبالنبوة وبأحوال السكون والناس ترَ معنى الصراط فيه واضحاً لأن السبيل أو الصراط هو ما أسلكه وأسير فيه لبلوغ الغاية التي أقصدها . كذلك الحق الذي يبين لي الواقع في العقيدة الصحيحة هو كالجادة بين السبل المتفرقة المضلة فالطريق الواضح للحس ، يشبهه الحق للعقل والنفس ، سير حسي . وسير معنوي . كذلك اذا اعتبرت

المعنى فى الحدود والأحكام تجده واضحاً - قُسمت أحكام الأعمال الى واجب ومندوب ومباح ومحرم ومكروه فكان هذا مريحاً لنا من تمييز الخير من الشر بأنفسنا واجتهادنا فبيان الأحكام بالهداية الكبرى وهى الدين كالتاريخ الواضح يسلك بالعمل . ومع هذا تجد الشهوات تتلاعب بالأحكام وترجعها الى أهوائها كما يصرف السفهاء عقولهم وحواسهم فيما يرددهم وهذا التلاعب بالدين إنما يصدر من علمائه . وضرب لذلك مثلاً أحد الشيوخ المتفقيين سرق كتاباً من وقف أحد الأروقة فى الأزهر مستحلاً له بحجة أن قصد الواقف الانتفاع به وهو يحصل بوجود الكتاب عنده وقد يفوت النفع ببقائه فى الرواق حيث وضعه الواقف . واستحلال المحرمات بمثل هذا التأويل ليس بقليل ولذلك كان الانسان محتاجاً أشد الاحتياج الى العناية الالهية الخاصة لأجل الاستقامة والسير فى تلك الهدايات الأربع سيراً مستقيماً يوصل الى السعادة لهذا نبهنا الله جل شأنه الى أن نلجأ اليه ونسأله الهداية ليكون عوناً لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا وأن تكون استعانتنا فى ذلك به لا بسواه بعد ان نبذل ما نستطيع من الفكر والجهاد فى معرفة ما أنزل

الينا من الشريعة والأحكام وأخذ أنفسنا بما فعلنا من ذلك .
وهذا أفضل ما نطلب فيه المعونة منه جل شأنه لاشتماله على
خيرى الدنيا والآخرة فهو بهذه الآية يعلمنا كيف نستعين
بعد أن علمنا اختصاصه بالاستعانة فى قوله وإياك نستعين

﴿ صرَّاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾
(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ)

الصراط المستقيم هو الموصل الى الحق ولكنه ما بينه
بذلك كما بينه فى نحو سورة العصر (وتلا الاستاذ السورة
وتكلم عليها كلاماً موجزاً) وإنما بينه بإضافته الى من سلك هذا
الصراط كما قال « فهداهم اقتده » وقد قلنا إن الفاتحة مشتملة على
إجمال ما فصل فى القرآن حتى من الأخبار التى هى مثل الذِّكْرِ
والاعتبار ، وينبوع العظة والاستبصار ، وأخبار القرآن كلها
تنطوي فى إجمال هذه الآية

فسر بعضهم المنعم عليهم بالمسلمين والمغضوب عليهم باليهود
والضالين بالنصارى . ونحن نقول إن الفاتحة أول سورة نزلت
كما قال الأمام علي رضى الله عنه وهو أعلم بهذا من غيره لأنه
تربى فى حجر النبي صلى الله عليه وسلم وأول من آمن به وإن لم

تكن أول سورة على الأطلاق فلا خلاف في أنها من أوائل
السور (كما مرّ في المقدمة) ولم يكن المسلمون في أول نزول
الوحي بحيث يطلب الاهتداء بهداهم وماهداهم إلا من
الوحي ثم هم المأمورون بأن يسألوا الله أن يهديهم هذا السبيل
سبيل من أنعم الله عليهم فاولئك غيرهم وإنما المراد بهذا ما جاء
في قوله تعالى « فبهدهم اقتده » وهم الذين أنعم الله عليهم من
النبیین والصدّيقین والشهداء والصالحین من الأمم السالفة .
فقد أحال على معلوم أجمله في الفاتحة وفصله في سائر القرآن
بقدر الحاجة فثلاثة أرباع القرآن تقريباً قصص وتوجيه للأنظار
الى الاعتبار بأحوال الأمم في كفرهم وإيمانهم وشقاوتهم وسعادتهم
ولا شيء يهدي الأئسان كالمثلات والوقائع فاذا امثلنا الامر
والارشاد ونظرنا في أحوال الأمم السالفة وأسباب علمهم
وجهلهم وقوتهم وضعفهم وعزيمهم وذلمهم وغير ذلك مما يعرض
للأمم كان لهذا النظر أثرٌ في نفوسنا يحملنا على حسن الاسوة
والاقتداء بأخيار تلك الأمم فيما كان سبب السعادة والتمكّن
في الارض واجتناب ما كان سبب الشقاوة أو الهلاك والدمار .
ومن هنا نجلي للماقل شأن علم التاريخ وما فيه من الفوائد

والثمرات وتأخذ الدهشة والحيرة اذا سمع أن كثيراً من رجال الدين من أمة هذا كتبها يعادون التاريخ باسم الدين ويرغبون عنه ويقولون إنه لا حاجة اليه ولا فائدة له . وكيف لا يدهش ويحار والقرآن ينادي بأن معرفة أحوال الأمم من أهم ما يدعو اليه هذا الدين « وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ »

وهنا سؤال وهو كيف يأمرنا الله تعالى باتباع صراط من تقدمنا وعندنا أحكام وارشادات لم تكن عندهم وبذلك كانت شريعتنا أكمل من شرائعهم وأصلح لزماننا وما بعده؟ والقرآن يبين لنا الجواب وهو أنه يصرح بأن دين الله في جميع الأمم واحد وإنما تختلف الأحكام بالفروع التي تختلف باختلاف الزمان وأما الأصول فلا خلاف فيها . قال تعالى « قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ » الآية وقال تعالى « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » الآية . فلا اعتقاد بالله وبالنبوة وبترك الشر وبعمل البر والتخلق بالاخلاق الفاضلة مستوفى في الجميع وقد أمرنا الله بالنظر فيما كانوا عليه والاعتبار بما صاروا اليه فنتقدي بهم في القيام على أصول الخير وهو أمر

يتضمن الدليل على أن في ذلك الخير والسعادة على حسب
طريقة القرآن في قرن الدليل بالمدلول والعلة بالمعلول والجمع بين
السبب والمسبب . وتفصيل الاحكام التي هذه كلياتها بالاء جمال
نعرفه من شرعنا ونبينا عليه الصلاة والسلام

وأما قوله تعالى « غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ » فالمغضوب
عليهم هم الذين خرجوا عن الحق بعد علمهم به والذين بلغهم
شرع الله تعالى ودينه فرفضوه ولم يتقبلوه انصرافا عن الدليل ،
ورضى بما ورثوه من القيل ، ووقوفاً عند التقليد ، وعكوفاً على
هوى غير رشيد ، وغضب الله عقوبته وانتقامه . وقوله
« وَلَا الضَّالِّينَ » قرن المعطوف فيه بلا لما في (غير) من معنى
النفى أي وغير الضالين فقيه ناكيد للنفى . وهو يدل على أن
الطوائف ثلاث المنعم عليهم والمغضوب عليهم والضالون ولا
شك أن المغضوب عليهم ضالون أيضاً لانهم بنبذهم الحق وراء
ظهورهم قد استدبروا الغاية واستقبلوا غير وجهتها فلا يصلون
الى مطلوب ، ولا يهتدون الى مرغوب ، ولكن فرقا
بين من عرف الحق فاعرض عنه على علم وبين من لم يظهر
له الحق فهو تائه بين الطرق لا يهتدي الى الجادة فيها وهم من لم

تبلغهم الرسالة أو بلغتهم على وجه لم يتبين لهم فيه الحق فهؤلاء هم أحق باسم الضالين فان الضال حقيقة هو التائه الواقع في عمية لا يهتدي معها الى المطلوب والعمية في الدين هي الشبهات التي تلبس الحق بالباطل وتشبه الصواب بالخطأ

والضالون على أقسام (الاول) من لم تبلغهم الدعوة الى الرسالة أو بلغتهم على وجه لا يسوق الى النظر فهؤلاء لم يتوفر لهم من أنواع الهداية سوى ما يحصل بالحس والعقل وحرموا رشد الدين فان لم يضلوا في شؤونهم الدنيوية ضلوا الاحالة فيما تطلب به نجات الارواح وسعادتها في الحياة الاخرى على أن من شأن الدين الصحيح أن يفيض على أهله من روح الحياة مابه يسعدون في الدنيا والآخرة معاً فمن حرم الدين حرم السعادتين وظهر أثر التخبط والاضطراب في أعماله المعاشية وحل به من الرزايا ما يتبع الضلال والخبط عادة سنة الله في هذا العالم ولن تجد لسنة تبديلاً . أما أمرهم في الآخرة فعلى أنهم لن يساؤوا المهتدين في منازلهم وقد يعفو الله عنهم وهو الفعال لما يريد

(القسم الثاني) من بلغته الدعوة على وجه يبعث على النظر

فساق همته اليه واستفرغ جهده فيه ولكن لم يوفق الى

الاعتقاد بما دعي اليه وانقضى عمره وهو في الطلب وهذا القسم لا يكون الا أفراداً متفرقة في الأمم ولا يعم حاله شعباً من الشعوب فلا يظهر له أثر في أحوالها العامة وما يكون لها من سعادة وشقاء في حياتهم الدنيا أما صاحب هذه الحالة فقد ذهب بعض الاشاعرة الى أنه ممن ترجى له رحمة الله تعالى وينقل صاحب هذا الرأي مثله عن أبي الحسن الاشعري وعلى رأي الجمهور فلا ريب أن مؤاخذته أخف من مؤاخذة الجاحد الذي استعصى على الدليل وكفر بنعمة العقل ورضي بحظه من الجهل (القسم الثالث) من بلغتهم الرسالة وصدقوا بها بدون نظر في أدلتها ولا وقوف على أصولها فاتبعوا أهواءهم في فهم ما جاءت به في أصول العقائد وهؤلاء هم المبتدعة في كل دين ومنهم المبتدعون في دين الاسلام وهم المنحرفون في اعتقادهم عما تدلّ عليه جملة القرآن وما كان عليه السلف الصالح وأهل الصدر الاول ففرقوا الامة الى مشارب يغص بمائها الوارد ولا يرتوي منها الشارب وإني أشير الى طرف من آثارهم في الناس . يأتي الرجل الى دوائر القضاء فيستحلف بالله العلي العظيم أو بالمصحف الكريم وهو كلام الله القديم أنه ما فعل

كذا فيحلف وعلامة الكذب بادية على وجهه فيأبىه المستحلف من طريق آخر ويحمله على الحلف بشيخ من المشايخ الذين يعتقد بهم فيتغير لونه وتضطرب أركانه ثم يرجع في ألبته ويقول الحق ويقر بأنه فعل ما حلف عليه أولاً أنه لم يفعله تكريماً للاسم ذلك الشيخ وخوفاً منه أن يسلب عنه نعمة أو يحل به نقمة إذا حلف باسمه كاذباً (ثم ذكر الاستاذ وقائع كثيرة من ذلك) فهذا ضلال في أصول العقيدة يرجع الى الضلال في الاعتقاد بالله وما يجب له من الوجدانية في الافعال ولو اردنا أن نسردها ما وقع فيه المسلمون من الضلال في العقائد الاصلية بسبب البدع التي عرضت على دين الاسلام لطال المقال واحتيج الى وضع مجلدات في وجوه الضلال

ومن أشنعها أثراً وأشدّها ضرراً خوض رؤساء الفرق منهم في مسائل القضاء والقدر والاختيار والجبر وتحقيق الوعد والوعيد وتهوين مخالفة الله على نفوس العبيد

إذا وزنا ما في أدمغتنا من الاعتقادات بكتاب الله تعالى من غير أن ندخلها فيه أو لا يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين .
وأما إذا أدخلنا ما في أدمغتنا في القرآن وحشرنا فيها أولاً

فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال لاختلاط الموزون بالميزان فلا يدري ما هو الموزون من الموزون به . أريد أنه يجب أن يكون القرآن أصلاً تحمل عليه المذاهب والآراء في الدين لا أن تكون المذاهب أصلاً والقرآن هو الذي يحمل عليها ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها . كما جرى عليه المخدولون وتاه فيه الضالون

(القسم الرابع) ضلال في الاعمال وتحريف للاحكام عما وضعت له كالخطأ في فهم معنى الصلاة والصيام وجميع العبادات والخطأ في فهم الاحكام التي جاءت في المعاملات ولنضرب لذلك مثلاً الاحتيال في الزكاة بتحويل المال الى ملك الغير قبل حلول الحول ثم استراداده بعد مضي قليل من الحول الثاني حتى لا تجب الزكاة فيه وظنّ المحتال أنه بحيلته قد خلص من أداء الفريضة ونجا من غضب من لا تخفى عليه خافية ولا يعلم أنه بذلك قد هدم ركناً من أهم أركان دينه وجاء بعمل من يعتقد أن الله قد فرض فرضاً وشرع بجانب ذلك الفرض ما يذهب به ويمحو أثره وهو محال عليه جل شأنه — ثلاثة أقسام من هذا الضلال اولها وثالثها ورابعها يظهر أثرها في الامم فتختل

قوى الادراك فيها وتفسد الأخلاق وتضطرب الاعمال ويحل بها الشقاء عقوبة من الله لا بد من نزولها بهم سنة الله في خلقه ولن تجد لسنةه تحويلاً . ويعدّ حلول الضعف ونزول البلاء بامة من الامم من العلامات والدلائل على غضب الله تعالى عليها لما أحدثته في عقائد ها و أعمالها مما يخالف سنّنه ولا يتبع فيه سنّنه . لهذا علمنا الله تعالى كيف ندعوه بان يهديننا طريق الذين ظهرت نعمته عليهم بالوقوف عند حدوده وتقويم العقول والاعمال بفهم ما هداانا اليه وأن يجنبنا طرق اوائك الذين ظهرت فيهم آثار نقمه بالانحراف عن شرائعه سواء كان ذلك عمداً وعناداً أو غواية وضلالاً

واعلموا أن الامة اذا ضلّت سبيل الحق ولعب الباطل باهوائها ففسدت أخلاقها واعتلت اعمالها وقعت في الشقاء لا محالة ووسط الله عليهما من يستند لها ويستأثر بشؤونها ولا يؤخر لها العذاب الى يوم الحساب وان كانت ستلاقي نصيبها منه أيضاً فاذا تمادى بها الغي وصل بها الى الهلاك ومحي أثرها من الوجود لهذا علمنا الله تعالى كيف ننظر في أحوال من سبقنا ومن بقيت آثارهم بين أيدينا من الامم لنعتبر ونميز بين ما به تسعد الاقوام

وما به تشقى . أما في الافراد فلم تجر سنة الله بلزوم العقوبة لكل ضال في هذه الحياة الدنيا فقد يستدرج الضالُّ من حيث لا يعلم ويدركه الموت قبل أن تزول النعمة عنه وإنما يلقي جزاءه « يوم لا تملكُ نفسٌ لنفسٍ شيئاً والامرُ يومئذٍ لله »

المقالة الأولى

﴿ في أفعال العباد ونسبتها تارة إليهم وتارة إلى الله تعالى ﴾
 نشرنا هذه المقالة في الجزء السابع من المجلد الثالث من مجلة المنار (ص ١٥٧) تحت عنوان «سؤال وجواب عن آيتين من الكتاب»
 رفع سؤال إلى مولانا حجة الاسلام وقدوة الأنام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية يطلب صاحبه فيه بيان الجمع بين قوله تعالى « وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَّا لِهَوْلَاءِ الْقَوْمِ لَا يُكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا » وقوله تعالى عقيبها « مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا » فإن بينهما في

باديء لرأي نافعاً ينزهه عنه كلام الله تعالى فأجاب جفظة الله تعالى
بقوله

كان بعض القوم بطراً جاهلاً إذا أصابه خير ونعمة يقول إن
الله تعالى قد أكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لده وساقه
إليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته وإذا وصل إليه
شر وهو المراد من السيئة يزعم أن منبع هذا الشر هو النبي
صلى الله عليه وسلم وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات
والشرور . فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر
والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده كانوا يفرقون
بينهما في السبب الاول لكل منهما فينسبون الخير أو الحسنة
الى الله تعالى على أنه مصدرها الاول ومعطيها الحقيقي يشيرون
بذلك الى أنه لا يد للنبي فيه وينسبون الشر أو السيئة الى النبي
على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك وأن شؤمه
هو الذي رماهم بها وهذا هو معنى « من عند الله » أو « من
عندك » أي من لده ومن خزائن عطائه ومن لذك ومن
رزاياك التي ترمي بها الناس . فرد الله عليهم هذه المزاعم بقوله
« قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ » أي أن السبب الاول وواضع أسباب

الخير والشر المنعم بالنعم والرامي بالنقم انما هو الله وحده وليس لمن
ولا لشؤم مدخل في ذلك فهو بيان للفاعل الاول الذي يرد اليه
الفعل فيما لا تناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم وهو الذي
كان يعنيه أولئك المشاقون عند ما يقولون الحسنة من الله والسيئة
من محمد أي انه لا دخل لاختيارهم في الاولى ولا في الثانية وأن
الاولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم فجاءت الآية
ترميهم بالجهل فيما زعموا ولو عقوا العلموا ان ليس لاحد فيما
وراء الاسباب المعروفة نعل الخير والشر في ذلك سواء

هذا فيما يتعلق بمن بيده الامر الاعلى في الخير والشر
والنعم والنقم أما ما يتعلق بسنة الله في طريق كسب الخير والتوقي
من الشر والتمسك بأسباب ذلك فالأمر على خلاف ما يزعمون
كذلك فان الله سبحانه وتعالى قد وهبنا من العقل والقوى
ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء
فاذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت لاجله وصر فناحو اسنا
وعقولنا في الوجوه التي ننال منها الخير وذلك انما يكون
بتصحيح الفكر وإخضاع جميع قوانا لاحكامه وفهم شرائع الله
حق الفهم والتزام ما حدده فيها فلا ريب في أننا ننال الخير والسعادة

ونبعد عن الشقاء والتعاسة وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك
 المواهب الالهية فهي من الله تعالى فما أصابك من حسنة فمن الله
 لان قواك التي كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات بل
 واستعمالك لتلك القوى إنما هو من الله لانك لم تأت بشيء سوى
 استعمال ما وهب الله فاتصال الحسنات بالله ظاهر ولا يفصلها عنه
 فاصل لا ظاهر ولا باطن . وأما اذا أسأنا التصرف في أعمالنا
 وفرطنا في النظر في شؤوننا وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما
 أودع الله في شرائعه وغفلنا عن فهمه فاتبعنا الهوى في أفعالنا
 وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا كان ما أصابنا من ذلك صادرا عن سوء
 اختيارنا وإن كان الله تعالى هو الذي يسوقه اليها جزاء على ما فرطنا
 ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك الى شؤون أحد أو تصرفه . ونسبة
 الشر والسيئات اليها في هذه الحالة ظاهرة الصحة فاما المواهب
 الالهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وانما يعطل أثرها
 إهمالها أو سوء استعمالها وعن كلا الأمرين يساق الشر الى أهله
 وهما من كسب المهملين وسيء الاستعمال فحق ان ينسب اليهم
 ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه فقد حالوا بكسبهم بين القوى
 التي غرزها الله فيهم لتؤدي الى الخير والسعادة وبين ما حجبها

أن تؤدي اليه من ذلك وبعدها بها عن حكمة الله فيها وصاروا
بها الى ضد ما خلقت لاجله فكل ما يحدث بسبب هذا
الكسب الجديد فأجدر به ألا ينسب الى كاسبه

وحاصل الكلام في المقامين أنه اذا نظر الى السبب الاول
الذي يعطي ويمنع ويمنح ويسلب وينعم وينتقم فذلك هو الله
وحده ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك ومن زعم غير
هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً إلا أن نسبة الخير الى الله ونسبة الشر
الى شخص من الاشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل فان الذي
يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذي يأتي بالشر ويقدر عليه
فالتفريق ضرب من الخبل في العقل

واذا نظرنا الى الأسباب المسنونة التي دعا الله الخلق
الى استعمالها ليكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء فمن أصابته
نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله لانه
أحسن استعماله الآلات التي من الله عليه بها فعليه أن يحمد
الله ويشكره على ما آتاه ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء
من ذلك فلا يلو من إلا نفسه فهو الذي أساء اليها بسوء استعماله
مالديه من المواهب وليس بسائق له أن ينسب شيئاً من ذلك

الى النبي ولا الى غيره فان النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على اتيان ما كان سبباً في الانتقام منه

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك (يا محمد) على ما ينالون من خير فان الله هو مانحهم ما وصلوا به الى الخير وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفي التزامها سعادتهم ثم إذا أصابهم شرّ كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدّبون أنفسهم ليخرجوا من نعمته الى نعمته لأن الكل من عنده وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ويسلب نعمته عن أساءه

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم وأن عصيانه من مجالب النعم وطاعة الله إنما تكون باتباع سننه و صرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله

ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب فانك لو كنت فقيراً وأعطاك والدك مثلاً رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسن في التصرف وقصد في الإنفاق وصرت بذلك غنياً فإنه يحق لك أن تقول ان غناك

انما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال وأعدك به للفنى .
 أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه
 واطلع على ذلك منك فاسترد ما بقي منه وحرمتك نعمة التمتع
 به فلا ريب أن يقال ان سبب ذلك انما هو نفسك وسوء
 اختيارها مع أن المعطي والمسترد في الحالين واحد وهو والدك
 غير أن الامر ينسب الى مصدره الأول اذا انتهى على حسب
 ما يريد وينسب الى السبب القريب اذا جاء على غير ما يجب لأن
 تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها الى
 مقاصدها انما ينسب الى من حولها وعدل بها عما كان يجب
 أن تسير اليه

وهناك للآية معنى أدق . يشعر به ذو وجدان أرق . مما
 يجده الغافلون من سائر الخلق . وهو أن ما وجدت من فرح
 ومسرة وما تمتعت به من لذة حسية أو عقلية فهو الخير الذي
 ساقه الله اليك واختاره لك وما خلقت الا لتكون سعيداً بما
 وهبك . أما ما تجده من حزن وكدر فهو من نفسك . ولو
 نفذت بصيرتك الى سر الحكمة فيما سيق اليك لفرحت
 بالمحزن فرحك باليسار وانما أنت بقصر نظرك تحب أن تختار

ما لم يختره لك العليم بك المدبر لشأنك ولو نظرت الى العالم
 نظرة من يعرفه حق المعرفة وأخذته كما هو وعلى ما هو عليه
 لكات المصائب لديك بمنزلة التوابل الحريفة^(١) يضيفها
 طاهيك^(٢) على ما يهيء لك من طعام اتزیده حسن طعم وتشخذ
 منك الاشتهاء لاستيفاء اللذة واستحسنات بذلك كل ما اختاره
 الله لك ولا يمنعك ذلك من التزام حدوده والتعرض لنعمه
 والتحوّل عن مصابّ نغمه فان اللذة التي تجدها في النعمة انما
 هي لذة التأديب . ومتاع التعليم والتهديب . وهو متاع تجتني
 فائدته . ولا تلتزم طريقته . فكما يسرُّ طالب الآداب أن
 تحمل المشقة في تحصيله وأن يلدّب بما يلاقه من تعب فيه يسره
 كذلك أن يرتقي فوق ذلك المقام الى مستوى يجد نفسه فيه
 متمتعاً بما حصل . بالغاً ما أمّل . وفي هذا كفاية لمن يريد
 أن يكفني اه

(١) هي ما يطيب به الطعام كالفلفل واحدها تابل

(٢) الطاهي الطباخ

المقالة الثانية

مسألة الغرائق . وتفسير الآيات

(نشرت في العدد الثالث من مجلة المنار لسنة الرابعة)

تمهيد . مصارعة الحق والباطل . رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه
بعصمتهم . عيث عشاق الروايات وافسادهم في الدين . الروايات
واختلافها في مسألة الغرائق . مخالفة المحققين لها . الرجوع الى اهل
العلم الصحيح في ازالة الحيرة . الطعن في رواية تفسير التمني بالقراءة .
الطعن في حديث الغرائق ورواية . الطعن فيه دراية . عصمة الانبياء .
الوجود الدالة على بطلان حديث الغرائق . تفسير الآيات على الوجه
الموافق لأسلوب القرآن المنطبق على العقائد الصحيحة . السباق
وسابق الآيات . التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآيات سورة
آل عمران في المحكمات والمتشابهات . التفسير الثاني . امانى الانبياء .
سنة الله فيهم وفي اقوامهم . تأويل ثالث . وسواس الشيطان . اللغات
في الغرئوق ومعانيه . عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة . انتفاء نقل
ذلك عن العرب . الجزم بان الحديث من وضع الاعاجم .

حديث الغرائق صار مشهوراً عند المتأخرين لوجوده

في كثير من كتب التفسير التي تناولها الايدي ولو صح لكان

أكبر شبهة على الدين ولكن المقلد البحت الذي لا نظر له لا يبالي بالشبه ويقبل كل نقل ، وان كان الفرع فيه ينفي الاصل ، وطلاب العنت يتشبثون بأهداب الشبه فيجعلونها معاوّل تهديم الاركان الثابتة ، وتنفي القضايا المبرهنة . ولذلك كثير الطعن في هذه الايام ، بدين الأسلام ، من دعاة النصرانية ، وبعض المفتونين بالشبه المادية ، واقوى تكفأة لهؤلاء الطاعنين ماقاله بعض المفسرين في مسألة زيد وزينب وفي مسألة الغرائق ومسألة أخرى . ولما كان كشف الشبهات وتخليص الحق من شوائب الباطل على وجه تثق به النفوس ، واطمئن اليه القلوب ، من وظائف أئمة الدين ، وأكابر العلماء الراسخين ، لجأ قوم الى حكيم الاسلام في هذا العصر ، وامام المسلمين في كل بادية ومصر ، مولانا الاستاذ الأ كبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، في أن يجلي لهم الحق في المسئلة الاولى فاجاب ، بما هو الحكمة وفصل الخطاب ، ونشرناه في المنار ، ليشتهر في الاقطار ، ثم سأله آخرون في هذه الايام عن الثانيه . فاجاب بما أزال الالتباس ، ومحّص ما في صدور الناس ، جعل المسئلة أولاً موضوع درس في الازهر حضره الجماهير والجم الغفير ثم

كتبها لتشر في المنار ، وتتناقل في الامصار . وهالك ماجاء
من فضيلته ، بنصه وعبارته :

« وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي الا اذا تمنى
القي الشيطان في أمنيته فينسخُ اللهُ ما يلقي الشيطان ثم يحكم
الله آياته والله عليم حكيم . ليجعل ما يلقي الشيطان فتنةً للذين
في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم وإن الظالمين لفي شقاق
بعيد . وليعلم الذين أتوا العلم أنه الحق من ربك فيؤمنوا
به فتثبت له قلوبهم وإن الله لهادي الذين آمنوا الى صراطٍ
مستقيم . ولا يزال الذين كفروا في مزية منه حتى تأتيهم
الساعة بغتةً أويأتيهم عذاب يوم عقيم »

قد يجد الباطل انصاراً . فيتبوا من نفوسهم داراً . ويتخذ
له منها قراراً . وتذهب على ذلك الايام بعد الايام . وتمضي
عليه الاعوام إثر الاعوام . وهو يلعب بأهله . ويغلب أهواءهم
بحيله . حتى يقصروا نظرهم عليه . ولا يجدوا ملجأ منه الا
اليه . فاذا أتوا من ناحيته رضوا . واذا عرض لهم الحق
أعرضوا . ولا يزالون كذلك الا أن تنحل به عراهم . وتفسد

بعلمه توأم . والحق لا يزال يعرض نفسه . يستخدم مرة
 لينة وأخرى بأسه . وهو الشاب الذي لا يهرم . والعامل الصبور
 الذي لا يسأم . وإنما يُعْرَضُ بوجهه عن الاغبياء . ويُولِّي ظهره
 الاشقياء . ثم لا ينفك يرحمهم . ولا يبرح يتعهدهم . يسفر
 عليهم محياه . ويرسل اليهم اشعة من سناه . فاذا وافاهم وقد
 وهنت منتهم^(١) . ومرهت عيونهم^(٢) . وحلك ليلهم . واشتد
 خبلهم . صاح بهم منه صالح . ورحمهم من جنده راح^(٣) .
 فقلق بالباطل مكانه . وزلزلات من حوله أركانه . وفزع يطلب
 النصير . ونار يلمس الحجير . فلا يجد الا أسباباً تقطعت به .
 وأعضادا فتَّ فيها بسببه .^(٤) وقد رنق قومه .^(٥) وعبس يومه
 فيحملق الى الحق يأخذه ببصره . ويستنزله بنظره . ولكن
 خاب الظن . وبطل الفن . ثم لا يلبث وهو الباطل ان يتحول

(١) المن جمع منة بالضم وهي القوة (٢) مرهت العين خلت من
 الكحل أو فسدت لتركة (٣) رحه طعنه بالرح . والراح ذوالرح (٤)
 الفت الدق والكسر بالاصابع ويقولون « فت في عضده » اذا كسر قوته
 وفرَّق عنه أنصاره (٥) رنق القوم بالمكان (بتشديد النون) أقاموا وفي
 الامر خلطوا الرأي والطائر خفق بجناحه ورُفرف ولم يطر

عنده اليأس املاً . ويجد من اليبس بللاً . فيظن وهو هو .
 ان الحق ناصره . وان ستقوى به أو اصره . فيستنصر بجنده .
 ويطلب النجدة من عنده . واقرب ما يكون خصم الى الهلكة
 اذا اطمان الى عدوه . وأمل الخير في دنوه . هذا شأن الباطل
 وأهله . مع تقلبه في ملله ونحله .

يعلم كل ناظر في كتابنا الالهي (القرآن) مارفع الاسلام
 من شأن الانبياء والمرسلين . والمنزلة التي أحلهم من حيث هم
 حملة الوحي و قدوة البشر في الفضائل وصالح الاعمال وتنزيهه
 اياهم عما رماهم به اعداؤهم وما نسبه اليهم المعتقدون بأديانهم . ولا
 يخفى على أحد من أهل النظر في هذا الدين القويم انه قد قرر
 عصمة الرسل كافة من الزلل في التبليغ والزيغ عن الوجهة التي
 وجه الله وجوههم نحوها من قول أو عمل وخص خاتمهم محمداً
 صلى الله عليه وسلم فوق ذلك بمزايا فصلت في ثنايا الكتاب العزيز
 عصمة الرسل في التبليغ عن الله اصل من أصول الاسلام
 شهد به الكتاب وأيدته السنة وأجمعت عليه الامة . وما خالف
 فيه بعض الفرق فانما هو في غير الاخبار عن الله وابلغ وحيه
 الى خلقه . ذلك الاصل الذي اعتمدت عليه الاديان حق لا يرتاب

فيه ملي يفهم مامعنى الدين

مع ذلك لم يعدم الباطل فيه أعواناً يعملون على هدمه
وتوهين ركنه أولئك عشاق الروايات وعبدة النقل . نظروا
نظرة في قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي » —
— الآية وفيما روي عن ابن عباس (رضي الله عنهما) من أن
تمنى بمعنى قرأ والامنية القراءة فعمي عليهم وجه التأويل الحق
على فرض صحة الرواية عن ابن عباس فذهبوا يطلبون مابه يصح
التأويل في زعمهم فقيض لهم من يروي في ذلك احاديث
تختلف طرقها وتباين الفاظها وتتفق في أن النبي صلى الله
عليه وسلم عند ما بلغ منه أذى المشركين ما بلغ وأعرضوا عنه
وجفاه قومه وعشيرته لعيبه اصنامهم وزرايته على آلتهم أخذه
الضجر من إعراضهم ولحرصه على اسلامهم وتهالكه عليه تمنى
ان لا ينزل عليه ما ينفرهم لعله يتخذ ذلك طريقاً الى استمالتهم
واستنزالهم عن غيرهم وعنادهم فاستمر به ما تمناه حتى نزلت عليه
سورة « والنجم اذا هوى » وهو في نادي قومه وروي انه كان
في الصلاة وذلك لتمنى أخذ بنفسه فطفق يقرأها فلما بلغ قوله :
ومناتة الثالثة الاخرى « ألقى الشيطان في أمنيته » التي تمنها ابان

وسوس له بما شيعها به فسبق لسانه على سبيل السهو والغلط
فدح تلك الاصنام وذكر ان شفاعتهم ترتجي . فمنهم من قال
انه عند ما بلغ « ومناة الثالثة الاخرى » سها فقال : تلك الغرائق
العلي . وان شفاعتهم لترتجي . ومنهم من روى (الغرائقة العلي)
ومنهم من روى (ان شفاعتهم ترتجي) بدون ذكر الغرائقة
والغرائق . ومنهم من قال انه قال (وانها مع الغرائق العلي)
ومنهم من روى (وانهم لهن الغرائق العلي . وان شفاعتهم
لهي التي ترتجي) ففرح المشركون بذلك وعند ما سجد في آخر
السورة سجدوا معه جميعاً

قال ابن حجر العسقلاني : وتعدد الطرق وصحة ثلاثة
منها وان كانت مرسلة يدل على ان للواقعة أصلاً صحيحاً .
وهذه الاسانيد الصحيحة -- في رأيه -- وان كانت مراسيل
يحتج بها من يرى الاحتجاج بالحديث المرسل بل ومن لا يراه
كذلك لانها متعددة يعضد بعضها بعضاً اهـ ولولا خوف
التطويل لآتيت بجميع تلك الروايات ما صح عنده منها وما لم
يصح ولكن لا أرى حاجة اليه في مقالي هذا

روى ذلك ابن جرير الطبري وشايه عليه كثير من

المفسرين . وفي طباع الناس ألف الغريب . والتهافت على
العجيب . فولعوا بهذه التفاسير واتخذوها عقدة إيمانهم حتى
ظنوا — وبعض الظن أثم — ان لا معدل عنها . ولا سبيل في
فهم الآية الى سواها . ونسوا ما رآه جمهور المحققين في تأويلها
وذهب اليه الأئمة في بيانها . حتى ثارت نائرة الشبه هذه الايام
في نفوس كثير منهم وهم يزعمون انهم مسلمون واحسوا ان
ذلك الضرب من التفسير لا يتفق مع أصل العصمة في التبليغ
وان فيه من الحججة للعدو مالا سبيل الى دفعه فلجأوا الى أهل
العلم الصحيح يلتمسوت منهم بيان المخرج مما سقطوا فيه .
وتوهموا انهم يقررون لهم ما ألفوا . ثم ينقدونهم من الحيرة
مع ثباتهم على ما حرفوا . ولا يمكن ضل رأيهم . وخاب ظنهم .
وسيقامون على المنهج . ويرون الحق ناصعاً ابلج

في صحيح البخاري : وقال ابن عباس في « اذا تمنى التقي
الشیطان في امنيته » : اذا حدث التقي الشيطان في حديثه
فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته . ويقال امنيته قراءته
« الا أماني » يقرؤون ولا يكتبون اه فتراد حكي تفسير
الامنية بالقراءة بلفظ (يقال) بعد ما فسرنا بالحديث رواية

عن ابن عباس وهذا يدل على المفارقة بين التفسيرين فما يدعيه الشراح ان الحديث في رأى ابن عباس بمعنى التلاوة يخالف ظاهر العبارة ثم حكايته تفسير الامنية بمعنى القراءة بلفظ (يقال) يفيد انه غير معتبر عنده (وسيأتي ان المراد بالحديث حديث النفس)

وقال صاحب الابريز ان تفسير تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة مروى عن ابن عباس في نسخة على بن ابي طلحة عن ابن عباس ورواه على بن صالح كاتب الليث عن معاوية بن صالح عن علي بن ابي طلحة عن ابن عباس وقد علم ما للناس في ابن ابي صالح كاتب الليث وان المحققين على تضعيفه . اهـ — هذا ما في الرواية عن ابن عباس وهي اصل هذه الفئنة وقد رأيت ان المحققين يضعفون راويها

واما قصة الغرائق فمع ما فيها من الاختلاف الذي سبق ذكره جاء في تميمها ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يفتن لما ورد على لسانه وان جبريل جاءه بعد ذلك فعرض عليه السورة فلما بلغ الكاهنتين قال له ما جئتكم بهاتين فخرن لذلك فأنزل الله عليه « وما أرسلنا » الآيات تسليمة له كما انزل لذلك قوله : « وان

كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لفتنننا غيرهم
 وإذا لاتخذوك خليلاً . ولولا أن ثبتناك لقد كدت تره كن اليهم
 شيئاً قليلاً . إذا لأذقناك ضعف الحيوة و ضعف المات ثم
 لاتجد لك علينا نصيراً » وفي بعض الروايات : ان حديث
 الغرائق فشا في الناس حتى بلغ أرض الحبشة فساء ذلك المسلمين
 والنبي صلى الله عليه وسلم فنزلت « وما أرسلنا » الآية . قال
 القسطلاني في شرح البخاري : وقد طعن في هذه القصة
 وسندها غير واحد من الأئمة حتى قال ابن اسحق وقد سئل
 عنها : هي من وضع الزنادقة اه وكفي في انكار حديث ان
 يقول فيه ابن اسحق انه من وضع الزنادقة مع حال ابن اسحق
 المعروفة عند المحدثين

وقال القاضي عياض : ان هذا حديث لم يخرج احد من
 أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم وانما أولع به
 وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون
 من الصحف كل صحيح وسقيم . ثم نقل عن أبي بكر ابن الملاء
 ما يدل على سقم الرواية واضطراب الرواة فيها وما يقضي عليها
 بالوهن والسقوط عن درجة الاعتبار . وقال الامام أبو بكر

ابن العربي - وكفى به حجة في الرواية والتفسير - : ان
جميع ماورد في هذه القصة لا أصل له

قال القاضي عياض والذي ورد في الصحيح ان النبي صلى
الله عليه وسلم قرأ « والنجم » وهو بمكة فسجد معه المسلمون
والمشركون والجن والانس اه وقد يكون ذلك لبلاغة السورة
وشدة قرعها وعظم وقعها . ثم قال القاضي : قد قامت الحجة
وأجمعت الامة على عصمته صلى الله عليه وسلم ونزاهته عن
هذه الرذيلة إمامن تمنيه أن ينزل عليه مثل هذا من مدح
آلهة غير الله وهو كفر أو ان يتسود عليه الشيطان ويشبهه
عليه القرآن حتى يجعل فيه ما ليس منه ويعتقد النبي صلى الله
عليه وسلم أن من القرآن ما ليس منه حتى يفهمه جبريل عليه
السلام وذلك كله ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم أو يقول
ذلك النبي صلى الله عليه وسلم من قبل نفسه عمداً وذلك كفر
أو سهواً وهو معصوم من هذا كله وقد قررنا بالبراهين
والاجماع عصمته صلى الله عليه وسلم من جريان الكفر على
لسانه أو قلبه لا عمداً ولا سهواً . أو ان يشبهه عليه ما يليق به الملك
مما يليق الشيطان أو يكون للشيطان عليه سبيل . أو ان يتقول

على الله لا عمداً ولا سهواً ما لم ينزل عليه وقد قال الله تعالى
« ولو تقول علينا بعض الاقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا
منه الوتين » وقال « إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات
ثم لا تجد لك علينا نصيراً » (ووجه ثان) وهو استحالة هذه
القصة نظراً وعرفاً وذلك ان هذا الكلام لو كان كما روي
لكان بعيد الالتهام . متناقض الاقسام . ممتزج المدح بالذم .
متخاذل التأليف والنظم . ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم
ومن بحضرته من المسلمين . وصناديد المشركين . ممن يخفى
عليه ذلك . وهذا لا يخفى على اذني متأمل فكيف بمن رجح
حلمه . واتسع في باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه .
(ووجه ثالث) انه علم من عادة المنافقين . ومعاودة المشركين .
وضعفه القلوب والجهلة من المسلمين . نفورهم لأول وهلة .
وتخليط العدو على النبي صلى الله عليه وسلم لأقل فئنة . وتعبيرهم
المسلمين والشماتة بهم الفينة بعد الفينة ^(١) وارتداد من في قلبه
مرض ممن أظهر الاسلام لأذني شبهة . ولم يحك أحد في
هذه القصة شيئاً سوى هذه الرواية الضعيفة الاصل . ولو كان

(١) الفينة كالغيلة الساعة والحين

ذلك لوجدت قريش بها على المسلمين الصولة . ولا قامت بها اليهود عليهم الحججة . كما فعلوا مكابرة في قصة الاسراء . قال : ولا فتنة أعظم من هذه البلية لو وجدت . ولا تشغيب لامعادي حيثند أشد من هذه الحادثة لو امكنت .^(١) وما ورد عن معاند فيها كلمة . ولا عن مسلم بسببها بنت شفة . فدل على بطلها . واجنثاث أصلها . ولا شك في ادخال بعض شياطين الانس والجن هذا الحديث على بعض مغفلي المحدثين . ليلبس به على ضعفاء المسلمين . (ووجه رابع) ذكر الرواة لهذه القصة ان فيها نزلت « وان كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا اليك » الآيتان وهذان الآيتان تردان الخبر الذي رووه لأن الله تعالى ذكر انهم كادوا يفتنونه حتى يفترى ولولا ان ثبته لكاد يركن اليهم شيئاً قليلاً . فمضمون هذا ومفهومه ان الله عصمه من ان يفترى وثبته حتى لم يركن اليهم قليلاً فكيف كثيراً . وهم يروون في أخبارهم الواهية انه زاد على الركون والافتراء بمدح آلهتهم وانه صلى الله عليه وسلم قال : افتريت على الله وقات ما لم يقل . وهي تضعف الحديث لو صح فكيف ولا صحة له ؟ وهذا مثل

قوله تعالى في الآية الاخرى « ولولا فضل الله عليك ورحمته
 لممت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم وما
 يضرونك من شيء » قال القشيري ولقد طالبه قريش وثقيف
 اذ مر بالهتهم ان يقبل بوجهه اليها ووعدوه الايمان به ان
 فعل فما فعل ولا كان ليفعل . قال ابن الانباري ما قارب
 الرسول ولا ركن . انتهى المطلوب من كلام القاضي رحمه
 الله . وقد اورد بعد ذلك كثيراً من القول في توهين الرواية
 وتكذيبها

أما ما ذكره ابن حجر من ان القصة رويت مرسله من
 ثلاث طرق على شرط الصحيح وانه يحتاج بها الخ ما سبق فقد
 ذهب عليه كما قال في الابريز ان العصمة من العقائد التي يطلب
 فيها اليقين فالحديث الذي يفيد خرمها ونقضها لا يقبل على أي
 وجه جاء وقد عدّ الاصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة
 من الاخبار التي يجب القطع بكذبها . هذا لو فرض اتصال
 الحديث فما ظنك بالمراسيل وانما الخلاف في الاحتجاج بالمرسل^(١)

(١) الحديث المرسل هو الذي سقط من سنده من بعد التابعي
 والجمهور يتوقفون عن الاحتجاج به لجواز أن يكون الساقط غير صحابي

وعدم الاحتجاج به فيما هو من قبيل الاعمال وفروع الاحكام
لا في اصول العقائد ومعاهد الايمان بالرسول وما جاؤا به فهي
هفوة من ابن حجر يغفرها الله له

هذا ما قاله الأئمة جزاهم الله خيراً في بيان فساد هذه
القصة وانها لا أصل لها ولا عبرة برأي من خالفهم فلا يعتد
بذكرها في بعض كتب التفسير وان بلغ أربابها من الشهرة
ما بلغوا وشهرة المبطل في بطله لا تنفع القوة في قوله ولا تحمل
على الأخذ برأيه

﴿ تفسير الآيات ﴾

والآن أرجع الى تفسير الآيات على الوجه الذي تحتمله
الفاظها وتدل عليه عباراتها والله أعلم
لا يخفى على كل من يفهم اللغة العربية وقرأ شيئاً من القرآن
ان قوله تعالى « وما ارسلنا من قبلك من رسول ولا نبي »
الآيات يحكي قدرًا قَدَّرَ للمرسلين كافة لا يعدونه ، ولا يقفون
ذونه ، ويصف شنشنة عرفت فيهم وفي أممهم . فلوصح ما قال
اولئك المفسرون لكان المعنى ان جميع الانبياء والمرسلين قد
سَلَطَ الشيطان عليهم ، فخلط في الوحي المنزل اليهم ، ولكنه

بعد هذا الخلط ينسخ الله كلام الشيطان ويحكم الله آياته الخ .
وهذا من اقبح ما يتصور متصور في اختصاص الله تعالى
لأنبيائه ، واختيارهم من خاصة اوليائه ، فلندع هذا الهذيان
وانعد الى ما نحن بصدده

ذكر الله لنبيه حالاً من أحوال الانبياء والمرسلين قبله
ليبين له سنته فيهم . وذلك بعد أن قال « وان يكذبوك فقد
كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم ابراهيم وقوم لوط
واصحاب مدين وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم
فكيف كان نكير . » - الى آخر الآيات . ثم قال : « قل
يا أيها الناس انما أنا لكم نذير مبين . فالذين آمنوا وعملوا
الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم . والذين سعوا في آياتنا
معاجزين اولئك اصحاب الجحيم . وما أرسلنا من قبلك من
رسول ولا نبي » الخ فالقصاص السابق كان في تكذيب الامم
لأنبيائهم ثم تبعه الامر الالهي بأن يقول النبي صلى الله عليه وسلم
لقومه انني لم أرسل اليكم الا لاندركم بعاقبة ما أتم عليه ولأبشر
المؤمنين بالنعيم واما الذين يسمعون في الآيات والادلة التي اقيمها
على الهدى وطرق السعادة ليحولوا عنها الانظار ، ويحجبوها

عن الابصار ، ويفسدوا اثرها الذي اقيمت لاجله ويعجزوا
بذلك النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين اى يسابقونهم ليعجزوهم
ويسكتوهم عن القول وذلك بلعهم بالالفاظ وتحويلها عن مقصد
قائلها كما يقع عادة من أهل الجدل والمحاكة - هؤلاء الضالون
المضلون هم اصحاب الجحيم . واعقب ذلك بما يفيد ان ما ابتلي
به النبي صلى الله عليه وسلم من المعاجزة فى الآيات قد ابتلي به
الانبياء السابقون فلم يبعث نبي فى أمة الا كان له خصوم
يؤذونه بالتأويل والتحريف ويضادون امانيه ويحولون بينه
وبين ما يبتغي بما يلقون فى سبيله من العثرات . فعلى هذا
المعنى الذى يتفق مع ما لقيه الانبياء جميعاً يجب ان تفسر الآية
وذلك يكون على وجهين

{ الاول } ان يكون تمنى بمعنى قرأ والامنية بمعنى القراءة

وهو معنى قد يصح وقد ورد استعمال اللفظ فيه . قال حسان
ابن ثابت فى عثمان رضى الله عنهما :

تمنى كتاب الله اول ليله
وأخره لاقى حمّام المقادر

تمنى كتاب الله اول ليله

وقال آخر

تمنى داود الزبور على رسل

تمنى كتاب الله اول ليله

غير ان الالتقاء لا يكون على المعنى الذى ذكره بل على المعنى المفهوم من قولك « أقيمتُ فى حديث فلان » اذا ادخلت فيه ما ربما يحتمله لفظه ولا يكون قد أراده او نسبت اليه ما لم يقله تمللاً بان ذلك الحديث يؤدى اليه . وذلك من عمل المعاجزين الذين ينصبون انفسهم لمحاربة الحق يتبعون الشبهة ويسعون وراء الريبة فالالتقاء بهذا المعنى دأبهم ونسبة الالتقاء الى الشيطان لانه مثير الشبهات بوساوسه ، مفسد القلوب بدسائسه ، وكل ما يصدر من أهل الضلال يصح ان ينسب اليه ويكون المعنى : وما أرسلنا قبلك من رسول ولا نبي الا اذا حدث قومه عن ربه او تلاوحياً انزل اليه فيه هدى لهم قام فى وجهه مشاغبون يحولون ما يتلوه عليهم عن المراد منه ، ويتقولون عليه ما لم يقله ، وينشرون ذلك بين الناس ليمعدوهم عنه ، ويعدلوا بهم عن سبيله ، ثم يحق الله الحق ، ويبطل الباطل ، ولا زال الانبياء يصبرون على ما كذبوا وأوذوا ويجاهدون فى الحق ولا يعتمدون بتعجيز المعجزين ، ولا بهزم المستهزئين ، الى ان يظهر الحق بالمجاهدة ، وينتصر على الباطل بالمجادة ، فينسخ الله تلك الشبهة ويمجتها من اصولها ، ويثبت آياته ويقرررها ، وقبله

وضع الله هذه السنة في الناس ليميز الخبيث من الطيب فيفتن
الذين في قلوبهم مرض وهم ضعفاء العقول بتلك الشبه والوساوس
فينطلقون وراءها ويفتن بها القاسية قلوبهم من أهل العناد
والمجاهدة فيتخذونها سنداً يعتمدون عليها في جدلهم ثم يتخص
الحق عند الذين أتوا العلم ويخلص لهم بعد ورود كل شبهة عليه
فيعلموا انه الحق من ربك فيصدقوا به فتخبت وتطمئن له
قلوبهم . والذين أتوا العلم هم الذين رزقوا قوة التمييز بين البرهان
القاطع الذي يستقر بالعقل في قرارة اليقين ، وبين المغالطات
وضروب السفسطة التي تطيش بالفهم ، وتطير به مع الوهم ،
وتأخذ بالعقل تارة ذات الشمال واخرى ذات اليمين ، وسواء
ارجعت الضمير في « انه الحق » الى ما جاءت به الآيات المحكمة
من الهدى الالهي أو الى القرآن وهو أجلها فالعنى من الصحة
على ما يراه أهل التمكن .

هؤلاء الذين أتوا العلم هم الذين آمنوا وهم الذين هدام
الله الى الصراط المستقيم ، ولم يجعل للوهم عليهم سلطاناً فيخيد
يهم عن ذلك النهج القويم . وأما الذين كفروا وهم ضعفاء العقول
ومرضى القلوب أو أهل العناد وزعماء الباطل وقساة الطباع

الذين لا تلين أفئدتهم، ولا تبش للحق قلوبهم، فأولئك لا يزالون في ريب من الحق أو الكتاب لا تستقر عقولهم عليه، ولا يرجعون في متصرفات شؤونهم إليه، حتى تأتي ساعة هلاكهم بغتة فيلاقون حسابهم عند ربهم. أو ان امتد بهم الزمن، وما ذمهم الاجل، فسيصيبهم « عذاب يوم عقيم » يوم حرب يسامون فيه سوء عذاب القتل أو الاسر، ويقذفون الى مطارح الذل وقرارات الشر، فلا يُنتج لهم من ذلك اليوم خير ولا بركة، بل يسلبون ما كان لديهم ويساقون الى مصارع الهلكة، وهذا هو العقم في أتم معانيه وأشأم درجاته

ما أقرب هذه الآيات في مغازيها الى قوله تعالى في سورة آل عمران « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات. فاما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الالباب » وقد قال بعد ذلك : « ان الذين كفروا لن تُغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً وأولئك هم وقود النار » ثم قال : « قل للذين كفروا استغلبون وتحشرون

الى جهنم وبئس المهاد» الخ الآيات . وكان احدى الطائفتين
من القرآن شرح للاخرى . فالذين فى قلوبهم زيغ هم الذين فى
قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم . والراسخون فى العلم هم الذين
أوتوا العلم . وهؤلاء هم الذين يعلمون انه الحق من ربهم
فيقولون آمنا به كل من عند ربنا فتخبت له قلوبهم وان الله
لهاديتهم الى صراط مستقيم . وأولئك هم الذين يفتنون بالتأويل .
ويشتغلون بقال وقيل . بما يلقي اليهم الشيطان . ويصرفهم
عن مرامي البيان . ويميل بهم عن محجة الفرقان . وما يتكئون
عليه من الاموال والاولاد لن يغني عنهم من الله شيئا فستوافيهم
آجالهم . وتستقبلهم أعمالهم . فان لم يوافهم الاجل على فراشهم .
فسيغلبون فى هراشهم .^(١) وهذه سنة جميع الانبياء مع
اممهم . وسبيل الحق مع الباطل من يوم رفع الله الانسان الى
منزلة يميز فيها بين سعادته وشقائه . وبين ما يحفظه وما
يذهب ببقائه . وكما لامدخل لقصة الغرائق فى آيات آل
عمران لامدخل لها فى آيات سورة الحج : هذا هو الوجه
الاول فى تفسير آيات « وما أرسلنا » الى آخرها على تقدير

ان تَمَنَّى بمعنى قرأً وان الامنية بمعنى القراءة والله أعلم
 (الوجه الثاني في تفسير الآيات) ان التمني على معناه
 المعروف وكذلك الامنية وهي أفعوله بمعنى المنية وجمعها امانى
 كما هو مشهور . قال أبو العباس احمد بن يحيى : التمني حديث
 النفس بما يكون وبمالا يكون . قال : والتمني سؤال الرب وفي
 الحديث « اذ تمنى أحدكم فليتكثر فانما يسأل ربه » وفي رواية
 « فليكثر » قال ابن الاثير : التمني تشبي حصول الامر المرغوب
 فيه وحديث النفس بما يكون ومالا يكون . وقال أبو بكر :
 تمنيت الشيء اذا قدرته وأحببت أن يصير الى . وكل ما قيل
 في معنى التمني على هذا الوجه فهو يرجع الى ما ذكرنا ويتبعه
 معنى الامنية .

ما أرسل الله من رسول ولا نبي ليدعو قوماً الى هدي
 جديد أو شرع سابق شرعه لهم ويحملهم على التصديق بكتاب
 جاء به نفسه ان كان رسولا أو جاء به غيره ان كان نبياً بُعثَ
 ليحمل الناس على اتباع من سبقه الا وله امنية في قومه وهي
 أن يتبعوه وينحازوا الى ما يدعوهم اليه ، ويستشفوا من داءهم
 بدوائه . ويعصوا أهوائهم باجابة ندائه . وما من رسول أرسل

الا وقد كان أحرص على أيمان أمته . وتصديقهم برسالته . منه على طعامه الذي يطعم . وشرا به الذي يشرب . وسكنه الذي يسكن اليه . ويعندو عنه ويروح عليه . وقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك في المقام الاعلى . والمكان الاسمى . قال الله تعالى : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » وقال « وما أكره الناس ولو حرصت بمؤمنين » وقال : « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » وفي الآيات ما يطول سرده مما يدل على أمانه صلى الله عليه وسلم المتعلقة بهداية قومه واخراجهم من ظلمات ما كانوا فيه الى نور ما جاء به

وما من رسول ولا نبي الا اذا تمنى هذه الامنية السامية اتى الشيطان في سبيله العثرات . وأقام بينه وبين مقصده العقبات . ووسوس في صدور الناس . وسلبهم الانتفاع بما وهبوا من قوة العقل والاحساس . فثاروا في وجهه . وصدوه عن قصده . وعاجزوه حتى لقد يعجزونه . وجادلوه بالسلاح والقول حتى لقد يقهرونه . فاذا ظهروا عليه والدعوة في بدايتها وسهل عليهم ايذاؤه وهو قليل الاتباع ضعيف الانصار ظنوا

الحق من جانبهم وكان فيما القود من العوائق بينه وبين ماعمد
اليه فتنة لهم

غلبت سنة الله في أن يكون الرسل من أواسط قومهم
أو من المستضعفين فيهم ليكون العامل في الاذعان بالحق محض
الدليل وقوة البرهان وليكون الاختيار المطلق هو الحامل لمن
يدعى اليه على قبوله واسكيلا يشارك الحق الباطل في وسائله .
أو يشاركه في نصب شركائه وحبائله . أنصار الباطل في كل
زمان هم أهل الانفة والقوة والجاه والاعتزاز بالاموال والاولاد
والعشيرة والاعوان والغرور بالزخارف . والزهو بكثرة المعارف .
ونلك الخصال انما تجتمع كلها أو بعضها في الرؤساء وذوي المكانة
من الناس فتذهلهم عن أنفسهم . وتصرف نظرهم عن سبيل
رشدهم . فاذا دعا الى الحق داع عرفته القلوب النقية من
أضرار هذه الفواتن . وفزعت اليه النفوس الصافية والعقول
المستعدة لقبوله بخلوصها من هذه الشواغل . وقلم توجد الا
عند الضعفاء وأهل المسكنة . فاذا التف هؤلاء حول الداعي
وظافروه على دعوته قام أولئك المغرورون يقولون « ما نراك
الابشرأ مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادي الرأي

وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين « فاذا استدرجهم الله على سنته وجعل الجدل بينهم وبين المؤمنين سجلاً افتن الذين في قلوبهم مرض من أشياعهم . وافتنوا هم بما أصابوا من الظفر في دفاعهم . ولكن الله غالب على أمره فيحق ما القاه الشيطان من هذه الشبهات . ويرفع هذه الموانع وتلك العقبات . ويهب السلطان لآياته فيحكمها . ويثبت دعائها . وينشئ من ضعف انصارها قوة ، ويخلف لهم من ذاتهم عزة ، وتكون كلمة الله هي العليا . وكلمة الشيطان هي السفلى . « فأما الزَّبَدُ فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الارض »

وفي حكاية هذه السنة الالهية التي أقام عليها الانبياء والمرسلين . تسلية لنبينا صلى الله عليه وسلم عما كان يلاقي من قومه ووعد له بأن سيكمل له دينه . ويتم عليه وعلى المؤمنين نعمته . مع استغفارتهم الى سيرة من سبقهم . « أحسب الناس ان يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين . أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه

متى نصر الله الا ان نصر الله قريب « هذا هو التأويل الثاني في معنى الآية ويدل عليه ما سبق من الآيات ويرشد اليه سياق القصص السابق في قوله « وان يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح » الخ . وأنت ترى ان قصة الغرائق لا تتفق مع هذا المعنى الصحيح . وهناك تأويل ثالث ذكره صاحب الابريز واني أتقله بحروفه وما هو بالبعيد عن هذا بكثير . قال بعد ذكر أماني الانبياء في أممهم وطمعهم في ايمانهم وشأن نبينا صلى الله عليه وسلم في ذلك على نحو يقرب مما ذكرناه في الوجه الثاني :

« ثم الامة تختلف كما قال تعالى « ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر » فأما من كفر فقد ألقى اليه الشيطان الوسوس القادحة له في الرسالة الموجبة لكفره . وكذا المؤمن أيضاً لا يخلو أيضاً من وساوس لانها لازمة للايمان بالغيب في الغالب وان كانت تختلف في الناس بالقلّة والكثرة وبحسب المتعلقات . اذا نقرر هذا فمعنى تمنى انه يتمنى لهم الايمان ويحب لهم الخير والرشد والصلاح والنجاح فهذه أمنية كل رسول ونبى والقاء الشيطان فيها يكون بما يلقيه في قلوب أمة الدعوة من الوسوايس

الموجبة لكفر بعضهم ويرحم الله المؤمنين فينسخ ذلك من قلوبهم ويحكم فيها الآيات الدالة على الوحدانية والرسالة ويبقى ذلك عز وجل في قلوب المنافقين والكافرين ليفتتوا به .
 فخرج من هذا ان الوساويس تلقى أولاً في قلوب الفريقين معاً غير انها لا تدوم على المؤمنين وتدوم على الكافرين « اه
 وأنت اذا نظرت بين هذا التفسير وبين ما سبقه تتبين
 الاحق بالترجيح

لو صح مقاله نقلة قصة الغرائق لارتفعت الثقة بالوحي وانتقض الاعتماد عليه كما قاله القاضي البيضاوي وغيره وكان الكلام في الناسخ كالكلام في المنسوخ يجوز ان يلقي فيه الشيطان ما يشاء ولا نهدم أعظم ركن للشرائع الالهية وهو العصمة . وما يقال في المخرج عن ذلك ينفر منه الذوق ولا ينظر اليه العقل . على ان وصف العرب لآلهتهم بأنها الغرائق العلى لم يرد لا في نظمهم ولا في خطبهم ولم ينقل عن أحد ان ذلك الوصف كان جارياً على ألسنتهم الا ما جاء في معجم ياقوت غير مسند ولا معروف بطريق صحيح وهذا يدل على ان القصة من اختراع الزنادقة كما قال ابن اسحق وربما كانت

منشأ ما أورده ياقوت . ولا يخفى ان الغرنوق والغرنيق لم يعرف في اللغة الا اسماً لطائر مائي اسود أو أبيض أو هو اسم الكركي أو طائر يشبهه . والغرنيق (بالضم و كزنبور وقنديل وسموأل وفردوس وقرطاس وعلابط) معناه الشاب الأبيض الجميل وتسمى الخصلة من الشعر المفتلة الغرنوق كما يسمى به ضرب من الشجر . ويطلق الغرنوق والغرائق على ما يكون في أصل العوسج اللين النبات . ويقال لمة غرائقة وغرائقية أي ناعمة تفيها الريح أو الغرنوق الناعم المستتر من النبات الخ ولا شيء في هذه المعاني يلائم الآلهة والاصنام حتى يطلق عليها في فصيح القول الذي يعرض على ملوك البلاغة وأمراء الكلام . فلا أظنك تعنقد الا أنها من مفتريات الاعاجم ومختلقات الملبسين ممن لا يميز بين حر الكلام ، وما استعبد منه لضعفاء الاحلام ، فراج ذلك على من يذهبه الولوع بالرواية . عما تقنضيه الدراية . « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب »



— ❧ المقالة الثالثة ❧ —

(مسألة زيد وزينب — أو ابطال التبنّي وتفسير الآيات في ذلك)

« نشرت في العدد السابع والعشرين من مجلة المنار للسنة الثالثة »

علم القراء مما كتبناه في وضع الحديث أسبابه (أي في المنار) ان
من الواضعين عن سوء القصد قوماً كانوا يتظاهرون بالصلاح
لأجل أن تقبل روايتهم وان منهم من كان يضع لقصد حسن
بحسب ما أداه اليه فكره القاصر وعقله الضعيف وان النتيجة
من هذا ان قبول الحديث لا يصح أن يكون موقوفاً على قوة
سنده وضمفه فقط بل تجب مراعاة أمور أخرى كأنطباقه على
قواعد الشريعة العامة وعقائد الدين الصحيحة وغير ذلك مما
لا محل لشرحه هنا. فاذا جاءت الرواية على خلاف ذلك بأن
كانت لا تنطبق على ما جاء في القرآن أو ما يليق بجلال الله
وتزيهه وحرمة دينه وعصمة أنبيائه وكرامتهم وجب رفضها
وعدم قبولها سواء أطمعن بسندها أم لا .

ومما يدخل في هذا الباب ما رووه في مسألة زيد بن حارثة

وطلاقه لزينب (رضي الله عنهما) وان سببه عشق النبي صلى

الله تعالى عليه وسلم لها فقد كانت هذه الرواية المشؤمة التي
لطخت بها صفحات أكثر التفاسير ولم ينظر في اخلاصها بمقام
الرسالة وما يليق بتلك الاخلاق التي شهد الله لها بالعظمة —
شبهة على الاسلام ومجراة لغير أهله على الخوض في النبي
الاكرم صلى الله عليه وسلم والاستدلال بذلك على عدم صحة
نبوته حتى لا تكاد تجد كتاباً من الكتب التي ألفها دعاة
النصرانية في الطعن بدين الاسلام وتنفير أهله منه الا وهذه
المسئلة تكأتمهم العظمى فيه بما يزيدونها من التشويه . وقد سأل
أحد فضلاء تونس في هذه الايام مولانا حكيم الامة . وخاتمة
الائمة . الاستاذ الاكبر الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية
عن تفسير الآيات الواردة في هذه المسئلة فأجاب حفظه الله
تعالى بهذا الجواب . الذي هو لب الباب . واية الحكمة
وفصل الخطاب . وهو بنصه :

« وَاِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ
عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى
النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَا كُهَا
لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا

قَضَوْا مِنْهُمْ وَطَرًّا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا »

نزل قبل هذه الآية قوله تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً »

نزلت هذه الآية في زينب بنت جحش وهي بنت عمته صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها الرسول على مولاه زيد بن حارثة ^(١) فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزلت آية « وما كان لمؤمن الخ » فلما نزلت الآية قالوا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهماً وخمراً وملحفة ودرعاً وازاراً وخمسين مدّاً من طعام وثلاثين صاعاً من تمر كذا يروى

فنحن نرى من جهة ان زينب كانت بنت عمّة النبي صلى الله عليه وسلم ربيت تحت نظره وشملها من عنايته ما يشمل البنت من والدها لاول الامر حتى انه اختارها للمولاه زوجة مع اباؤها و اباؤها و اباؤها وعدّ اباؤها هذا عصياناً ولا زالت كذلك حتى نزل في شأنها قرآن فكانه ارغمها على زواجه لما ألهمه الله

(١) يقال خطب فلانة على فلان اي جعلها خطيبة له

من المصلحة لها وللمسلمين في ذلك . ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله عليه وسلم لكان أقوى سلطاناً عليه جمال البكر في روايته ونصرة جدته وقد كان يراها ولم يكن بينه وبينها حجاب ولا يخفى عليه شيء من محاسنها الظاهرة ولكنه لم يرغبها لنفسه ورغبتها لمولاه فكيف يمتد نظره إليها ويصيب قلبه سهم حبها بعد ان صارت زوجة لعبد من عبيده نعم عليه بالعتق والحرية . لم يعرف فيما يغلب على مألوف البشر ان تعظم شهوة القريب وولعه بالقريب الى ان تبلغ حد العشق خصوصاً اذا كان عشيره منذ صغره بل المألوف زهادة الاقرباء بعضهم في بعض متى تعود بعضهم النظر الى بعض من بداية السن الى ان يبلغ حداً منه يجول فيه نظر الشهوة فكيف نظن أو نتوهم ان النبي الذي يقول الله له « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا » يخالف مألوف العادة ثم يخالف أمر الله في ذلك ؟ أم كيف يخطر بالبال ان من عصم الله قلبه عن كل دنية يغلب عليه سلطان شهوة في بنت عمته بعد ان زوجها بنفسه لعبد من عبيده ؟

ومن جهة أخرى نرى ان النبي صلى الله عليه وسلم وهو

الرؤف الرحيم لم يبال بإبائه زينب ورغبتها عن زيد وقد كان لا يخفى عليه ان نفور قلب المرأة من زوجها مما تسوء معه العشرة وتفسد به شؤون المعيشة فما كان له وهو سيد المصالحين ان يرغم امرأة على الاقتران برجل وهي لا ترضاه مع ما في ذلك من الضرر الظاهر بكل من الزوجين . لا ريب اننا نجد من ذلك هادياً الى وجه الحق في فهم الآية التي نحن بصدد تفسيرها ذلك ان التصاق الادعاء بالبيوت واتصالهم بأنسائها كان أمراً تدين به العرب وتعدده اصلاً يرجع اليه في الشرف والحسب . وكانوا يعطون الدعيّ جميع حقوق الابن ويجرون عليه وله جميع الاحكام التي يمتدبرونها للابن حتى في الميراث وحرمة النسب . وهي عقيدة جاهلية رديئة اراد الله محوها بالاسلام حتى لا يعرف من النسب الا الصريح . ولا يجري من احكامه الا ماله اساس صحيح . لهذا انزل الله « وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذالك قولكم بافواحكم والله يقول الحق وهو يهدي السبيل » ثم قال « ادعوهم لأبائهم هو اقسط عند الله » الخ . فهذا هو العدل الالهي ان لا ينال حق الابن الا من يكون ابناً . أما المتبنيّ واللصيق فلا يكون له الا حق المولى والاخ

في الدين . فحرم الله على المسلمين ان ينسبوا الدعي لمن تبناه .
 وحظر عليهم ان يقتطعوا له شيئاً من حقوق الابن لاقليلاً ولا
 كثيراً وشدد الامر حتى قال « وليس عليكم جناح فيما اخطأتم
 به ولكن ما تعمدت قلوبكم وكان الله غفوراً رحيماً » فهو يعفو
 عن اللفظة تصدر من غير قصد بأن يقول الرجل لآخر هذا
 ابني او ينادى شخص آخر بمثل ذلك لاعن قصد التبني ولكنه
 لا يعفو عن العمد من ذلك الذي يقصد منه الا لصاق بتلك
 اللحمة كما كان معروفاً من قبل

مضت سنة الله في خلقه ان ما رسخ في النفس بحكم
 العادة لا يسهل عليها التفصّي منه ولا يقدر على ذلك الا من رفعه
 الله فوق العادات . واعتقه من رق الشهوات . وجعل همته فوق
 المألوفات . فلا يطيبه الا الحق ^(١) ولا يحكم عليه الف ^(٢) ولا يغلبه
 عرف . ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم ومن يختصه الله بالتأسي به
 لهذا كان الامر اذا نهى الله عن مكروهه كانت الجاهلية

(١) اطباء بالتشديد استماله قال ابن دريد :

لا يطيبني ضمع مدنس اذا استمال طمع أو اطي

(٢) الالف بالفتح مصدر ألف واما الالف بالكسر فهو الآلف

عليه او احل شيئاً كانت الجاهلية تحرمه باذن النبي صلى الله عليه وسلم الى امثال النهي بالكف عن المنهي عنه والايان بضده وسارع الى تنفيذ الامر بايان المأمور به حتى يكون قدوة حسنة ومثالا صالحاً تحاكيه النفوس وتحتذيه الهمم وحتى يخف وزر العادة وتخلص العقول من ريب الشبهة .

نادى صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع بجرمة الربا وأول ربا وضعه ربا عمه العباس حتى يرى الناس صنيعه بأقرب الناس اليه واكرمهم عليه فيسهل عليهم ترك ما لهم وتنقطع وساوس الشيطان من صدورهم

على هذا السنن الآلهي كان عمل النبي صلى الله عليه وسلم في أمر زينب . كبر على العرب ان يفصلوا عن أهلهم من الصقوه بأنسابهم من ادعيائهم كما دل عليه قوله تعالى « وتخشى الناس » الخ فعمد النبي صلى الله عليه وسلم على سنته الى خرق العادة بنفسه وما كان^(١) ينبغى له ولا من مقتضى الحكمة ان يكلف أحد الادعياء

(١) قوله (ما كان الخ) اي ليس من شأنه ذلك ولا من مقتضى سنته وحكمته لان هذا تربية والتربية لا تدور الاعلى قطب الاسوة وفي مسألة الحلق في الحديثية عبرة ومثل فقد خالفوا الامر بالقول حتى حلق فحلقوا

الاباعد عنه ان يتزوج ثم يأمره بالطلاق ثم يأمر من كان قد تبناه ان
 يتزوج مطاقتة في ذلك من المشقة مع تحكم العادة ويمكن الاشتمزاز
 من النفوس ما لا يخفى على أحد . فالهमे الله ان يتولى الامر بنفسه
 في أحد عتقائه لتسقط العادة بالفعل كما ألغى حكمها بالقول الفصل
 لهذا ارغم النبي صلى الله عليه وسلم زينب ان تزوج بزید
 وهو مولاه ووصفيه والنبي يجد في نفسه ان هذا الزواج مقدمة
 لتقرير شرع وتنفيذ حكم آلهي . وبعد ان صارت زينب الى
 زيد لم يَلِنْ اباؤها الاول ولم يسلس قيادها بل شمت بانفها
 وذهبت تؤذي زوجها وتفخر عليه بنسبها وبانها اكرم منه
 عرفا واصرح منه حرية لانه لم يجر عليها رق كما جرى عليه
 فاشتكى منها الى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة
 وهو عليه السلام مع علو مقامه يغلبه الحياء فيتشد ويتمكث في
 تنفيذ حكم الله ولا يعجل فكان يقول لزيد « امسك عليك
 زوجك واتق الله » الى ان غلب أمر الله على امر الآئفة
 وسمح لزيد بطلاقها بعد ان مضى العيش معها ثم تزوجها بعد
 ذلك رسول الله ليمزق حجاب تلك العادة ويكسر ذلك الباب
 الذمى كان مغلقاً دون مخالفتها كما قال « لكيلا يكون على

المؤمنين حَرَجٌ في أزواج أَدْعِيائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ
 اللَّهُ مَفْعُولًا» وَكَذَلِكَ بِالتَّصْرِيحِ فِي نَفْيِ الشَّبْهَةِ بِقَوْلِهِ: «مَا كَانَ
 مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رُسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ
 بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا» هَذِهِ هِيَ الرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ وَالْقَوْلَةُ الرَّاجِحَةُ
 ذَكَرَ اللَّهُ نَبِيَهُ بِمَا وَقَعَ مِنْهُ لِيُزِيدَهُ تَشْبِيهًُا عَلَى الْحَقِّ وَلِيُدْفَعَ
 عَنْهُ مَا حَاكَ فِي صَدُورِ ضِعَافِ الْعُقُولِ وَمَرْضَى الْقُلُوبِ فَقَالَ
 «وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ «بِالْإِسْلَامِ» وَانْعَمْتَ عَلَيْهِ»
 بِالْعَتَقِ وَالْحَرِيَةِ وَالْإِصْطِفَاءِ بِالْوِلَايَةِ وَالْحُبِّ وَتَرْوِيحِهِ بِنْتِ عَمَّتِكَ
 وَتَعْظَمُهُ عِنْدَ مَا كَانَ يَشْكُو إِلَيْكَ مِنْ إِيْذَاءِ زَوْجِهِ «إِمْسَاكَ عَلَيْكَ
 زَوْجِكَ وَاتَّقِ اللَّهَ» وَآخِشَهُ فِي أَمْرِهَا فَإِنَّ الطَّلَاقَ يَشِينُهَا وَقَدْ
 يُؤْذِي قَلْبَهَا وَارْعَ حَقَّ اللَّهِ فِي نَفْسِكَ أَيْضًا فَرَبَّمَا لَا تَجِدُ بَعْدَهَا
 خَيْرًا مِنْهَا — تَقُولُ ذَلِكَ وَأَنْتِ تَعْلَمُ أَنَّ الطَّلَاقَ لَا يَبْدُو مِنْهُ بِمَا
 الْهَمَّكَ اللَّهُ أَنْ تَمَثَّلَ أَمْرُهُ بِنَفْسِكَ لِتَكُونَ أَسْوَأَ مَنْ مَعَكَ وَلَنْ
 يَأْتِيَ بِعَمَلِكَ وَأَنْمَا غَلَبَكَ فِي ذَلِكَ الْحِيَاءُ وَخَشْيَةُ أَنْ يَقُولُوا تَزَوَّجَ
 مُحَمَّدٌ مَطَاقَةَ مُتَبَدِّئَاهُ فَانْتَ فِي هَذَا «تَخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ»
 مِنَ الْحِكْمِ الَّذِي الْهَمَّكَ «وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهَ» الَّذِي أَمَرَكَ
 بِذَلِكَ كُلِّهِ «أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ» فَكَانَ عَلَيْكَ أَنْ تَمْضِيَ فِي الْأَمْرِ مِنْ

اول وهلة تعجيلا بتنفيذ كلمته وتقرير شرعه . ثم زاده بياناً بقوله
 « فلما قضى زيد منها وطراً » اي حاجة بالزواج « زوجها كها لكيلا
 يكون على المؤمنين حرج في ازواج ادعيائهم اذا قضوا منهن وطراً »
 لترتفع لوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا في أنفسهم حرجاً من ان
 يتزوجوا نساءً كنَّ من قبل زوجات لادعيائهم « وكان امر الله مفعولاً »
 وأما مارووه من ان النبي مرَّ بيت زيد وهو غائب
 فرأى زينب فوقع منها في قلبه شيء فقال : سبحان مقلب
 القلوب . فسمعت التسبيحة فنقلتها الى زيد فوقع في قلبه ان
 يطلقها الخ ما حكوه فقد قال الامام أبو بكر بن العربي انه
 لا يصح وان الناقلين له المحتجين به على مزاعمهم في فهم الآية
 لم يقدروا مقام النبوة حق قدره ولم تصب عقولهم من معنى
 العصمة كنهها وأطال في ذلك وأذكر من كلامه ما يؤيد
 ما ذكرنا في شأن هذه الروايات قال بعد الكلام في عصمة
 النبي صلى الله عليه وسلم وطهارته من العيب في زمن الجاهلية
 وبعد ان جاء الاسلام « وقد مهدنا لك روايات كلها ساقطة
 الاسانيد وانما الصحيح منها ماروي عن عائشة انها قالت لو كان
 النبي صلى الله عليه وسلم كاتماً شيئاً من الوحي لكتتم هذه الآية

«وإذ تقولُ الَّذِي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ» يعني بالاسلام «وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ» فَأَعْتَقْتَهُ «أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ» الى قوله «وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا» وَإِنْ رَسُولُ اللهِ لَمَّا تَزَوَّجَهَا قَالُوا تَزَوَّجَ حَلِيلَةَ ابْنِهِ فَأَنْزَلَ اللهُ «مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ» الْآيَةَ وَكَانَ رَسُولُ اللهِ تَبَاهٍ وَهُوَ صَغِيرٌ فَلَبِثَ حَتَّى صَارَ رَجُلًا يُقَالُ لَهُ زَيْدٌ بِنِ مُحَمَّدٍ فَأَنْزَلَ اللهُ «أَدْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ» يَعْنِي إِنَّهُ أَعْدَلُ عِنْدَ اللهِ قَالَ الْقَاضِي وَمَا وَرَاءَ هَذِهِ الْآيَةِ غَيْرُ مَعْتَبَرٍ فَأَمَّا قَوْلُهُمْ إِنْ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَاهَا فَوَقَعَتْ فِي قَلْبِهِ فَبَاطِلٌ فَانَّهُ كَانَ مَعَهَا فِي كُلِّ وَقْتٍ وَمَوْضِعٍ وَلَمْ يَكُنْ حِينَئِذٍ حِجَابَ فَكَيْفَ تَنْشَأُ مَعَهُ وَيَنْشَأُ مَعَهَا وَيَلْحَظُهَا فِي كُلِّ سَاعَةٍ وَلَا تَقَعُ فِي قَلْبِهِ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهَا زَوْجٌ وَقَدْ وَهَبَتْهُ نَفْسُهَا وَكَرِهَتْ غَيْرَهُ فَلِمَ يَخْطُرُ ذَلِكَ بِإِلَهِهِ فَكَيْفَ يَتَجَدَّدُ هَوَى لَمْ يَكُنْ حَاشًا لِذَلِكَ الْقَلْبِ الْمَطْهُرِ مِنْ هَذِهِ الْعِلَاقَةِ الْفَاسِدَةِ وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى «وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنِيَكَ إِلَى مَاءٍ تَعْنَاهُ بِأَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْسِهِمْ فِيهِ» وَالنِّسَاءُ أَفْتَنَ الزَّهْرَاتِ وَأَنْشَرَ الرِّيَاحِينَ وَلَمْ يَخَالَفْ هَذَا فِي الْمَطْلُوقَاتِ فَكَيْفَ فِي الْمُنْكَوْحَاتِ الْمَحْبُوسَاتِ» ثُمَّ سَاقَ الْكَلَامَ فِي تَفْسِيرِ الْآيَةِ عَلَى حَسَبِ مَا صَحَّ فِي الْوَاقِعَةِ

ولولا خوف التطويل لنقلت كلامه بحروفه .
 سبحان الله كيف ساع لقوم مسلمين أن يعنقدوا بمثل
 هذه الروايات وقد علموا ان الله لم يدع لنبيه أن يُعرض عن ابن
 أم مكتوم ويتصدى لصناديد قريش طمعاً في اسلامهم حتى
 عاتبه على ذلك في قوله « عبس وتولى » الخ الآيات مع انه لم
 ينصرف عن الاعمى الا لاشتغاله بما كان يعدّه في نفسه خيراً
 للدين ولم يكن رغبة في جاه ولا شرهاً الى مال ولا طموحاً
 الى لذة . فلو صحت الرواية التي زعموها في شأن زينب لكان
 العتاب على تلك التسبيحة بمسمع من زينب ثم على الزواج بعد
 الطلاق كما أشار اليه في قصة داود عليه السلام . وما كان
 محمد في علو مقامه ورفعة منزلته من النبوة لتطمح نفسه
 الى التلذذ بنت عمته وزوجة مولاة ولا أن يُسمعها ما يدل على
 شغفه بها ولا ان تضعف عزيمته عن قمع شهوته وكبح جماحها
 وما كان رب محمد يعلل شهوته ويُرْفِه من هواه فيما يخالف
 أمره وهو الذي نهاه أن يمدّ عينيه الى ما متع الله به الناس من
 زهرة الحياة الدنيا ومن زهرتها النساء . تسامى قدر محمد عن
 ذلك وتعالى شأن ربه عن هذا علواً كبيراً .

أما والله لو لا ما أدخل الضعفاء أو المدلسون من مثل هذه الرواية ما خطر ببال مطلع على الآية الكريمة شيء مما يرمون إليه فان نص الآية ظاهر جلي لا يحتمل معناه التأويل ولا يذهب الى النفس منه الا أن العتاب كان على التمهّل في الامر والتريث به وان الذي كان يخفيه في نفسه هو ذلك الامر الالهي الصادر اليه بأن يهدم تلك العادة المتأصلة في نفوس العرب وان يتناول المعول لهدمها بنفسه كما قدر له ان يهدم أصنامهم بيده لأوّل مرة عند فتح مكة وكما هو شأنه في جميع ما نهى عنه من عاداتهم . وهذا الذي كان يخفيه في نفسه كأن الله مبيديه بأمره الذي أوحاه اليه في كتابه وبتزويجه زوجة من كانوا يدعونه ابناً له كما تقدم بيانه . ولم يكن يمنعهُ عن ابداء ما أبدى الله الاحياء الكريم ، وتوَدُّة الحليم ، مع العلم بأنه سيفعل لا محالة لكن مع معاونة الزمان

أذكر لطيفة لبعض الاذكياء جرت بمحضر مني . وذلك اننا كنا نزور أحد الاساتذة الاميركانيين في مدينة بيروت فجاء في الحديث ذكر قوله تعالى « الذي أحسن كل شيء خلقه » فقال الاستاذ الاميريكي : حتى زينب زوجة زيد

ابن حارثة . يشير بقوله هذا الى تلك الحادثة ويعرض بعشقه
صلى الله عليه وسلم لزينب (على مازعموا) فقال له صاحبي :
سبحان الله انكم تستغلون بعلوم السموات والارض ولا تستعملون
عقولكم في اقرب الاشياء اليكم مع انكم في المشهور عنكم من
اشد الناس ولعابالبحث في الاديان . ان الله امر نبيه ان يتزوج زوجة
من دعاه ابناً له ليعين للناس بالفعل انه ليس كل من لقب بالابن
يكون على الحقيقة ابناً فان كان المسيح قد دعي في لسان الانجيل
بالابن فليس هذا على الحقيقة وانما الابن الحقيقي من ولد من
آبيه ولادة صحيحة « ان في ذلك لذكرى للعالمين » والله أعلم .



﴿ المقالة الرابعة في مسألة زيد وزينب ﴾

(ايضاح وخلاصة — رد شبهة مسيحي فاضل)

لقد كان لما كتبه مولانا مفتي الديار المصرية في هذه
المسألة ونشرناه في الجزء ٢٧ اجمل وقع . وأجل نفع . فتمشعت
به سحب الشبهات . وانحلت عقد المشكلات . وسكنت حركة
الشكوك التي كان يثور عجاجها . وتلاطم امواجها . وينهمر

شجّاجها . وتدفّق أثباجها . وشفيت امراض أعيان الأطباء
 علاجها . وقطعت من شخوص المطاعن حلاقيمتها واوداجها
 وهكذا يقذف بالحق على الباطل . فيدمغه فاذا هو زاهق وزائل .
 الا ان كلام الاستاذ في علو أسلوبه . وبديع تأليفه
 وتركيبه . ورسوخ عرقه في الفصاحة . وبعد غوره في البلاغة
 لم تتجلى جميع مقاصده لجميع الاذهان . ولم تتجل عرائس حسنه
 لكل من له عينان . ومن الناس من اعشاه نوره . وراعت
 فؤاده حوره . فاشتبه عليه سلطان البرهان . بسحر البيان .
 فتوهم انه مسحور الوجدان . لامقتنع العقل والجنان . وتخيّل
 انه مختلف بعبارة القلم واللسان . لاجتذاب براءة الحجّة الى
 قرارة الاقرار والاذعان . اعني بهذا وما قبله من استزادنا في
 المسئلة بيانا . ليزداد الذين آمنوا ايمانا . ومن قال من فضلا .
 المسيحيين . ان الشبهة لم تنكشف عن غير المسلمين . وانما
 غشيتها من فصاحة الاستاذ وبلاغته . وبراعته في عبارته . نور
 علاظمتها . وشفل النظر عن تشويه صورتها . وان من يضع
 على عينيه منظارا ملوّن الزجاج . ينكسر به شعاع البلاغة الوهاج
 يمكنه ان يبصر الطريقة . ويدرك الحقيقة . قال هذا وانشا

ينتقد كلمات الاستاذ رأى انها إقناعية . وليست حقيقة واقعية .
 منها قول الاستاذ « ولو كان للجمال سلطان على قلبه صلى الله
 عليه وسلم لسكان اقوى سلطانه عليه جمال البكر في رؤائه
 ونضرة جدته » الخ وذهب هذا المعترض في نقض هذه
 المسئلة الى ان من البنات من تكون دميمة في طور البسكرة
 حتى اذا ما تزوجت اكتست حلال الحسن والبهاء . والجمال
 والرواء . فيحتمل ان السيدة زينب كانت من هذا القبيل . وان
 كان في الوجود أقل القليل

ومنها قول الاستاذ « لم يعرف في مآلوف البشر ان تعظم
 شهوة القريب وولمه بالقرب خصوصاً اذا كان عشيره منه
 صغره » الخ قال المعترض انه يحفظ وقائع متعددة تعلق فيها
 الاقرباء بعضهم ببعض حتى كان من ذلك ما لاخريفه . وكذلك
 شأن من اشرب قلبه إنكار شيء او إثباته يتعلق بالشذوذ
 ويتشبث بالاستثناء ويترك القواعد العامة لا يحفل بها . وعهدي
 باذكياء المسيحيين انهم يرون اقوى اعتراض لهم على المسلمين
 في احتجاب النساء ان الحجاب والمنع من اسباب ازدياد الرغبة
 وقوة الداعية الى التطلع والرؤية . وان في الاختلاط أنساً ينتهي

بالمثل والزهادة كما هو المطرد في العادة . لاسيما بالنسبة للاقربين
ورأيت من المسلمين من يستدل على صحة هذا القول
بكون النفوس الى النساء المسلمات المتحجبات . أميل منها الى
النساء الاوروبيات . واكثر تشوّفاً . وأشدّ تطلّماً . مع ان
الاوروبيات في الجملة اجمل . وزينتهن اكمل . وما ذلك الا انهن
معروضات على الانظار . مألوفات للابصار . وكل معروض
مهان . والمألوف لا يعظم به الاثنان
منعت شيئاً فاكثر الولوع به

احب شيء الى الانسان ما منعا

ولنلو عنان النظر عن هذا وذاك وننظر الى تلك الواقعة
من غير ملاحظة ان من مقتضى الطباع السليمة . ومن شأن
النفوس الكبيرة . — التي لا ينكر مناظرنا المسيحي الفاضل
ان نفس محمد (صلى الله عليه وسلم) منها وان انكر نبوته —
ان لا يقع منها الشذوذ بشدة العشق للقريب المألوف بحيث
ينتهي الى ان صاحب النفس الكبيرة المتصدي لتأسيس دين
وشريعة يزاحم عبداً من عبيده على امرأة زوجته بها لعشقه لها
بعد زهده فيها وان يدخل ذلك في الشريعة التي يؤسسها . ثم

يظهر للملأ أن الله تعالى أنبه على ذلك بمثل قوله « وتخشى
الناس والله أحق أن تخشاه » . ولو كانت الواقعة كما يتوهم
القوم وكان محمد هو واضع القرآن ومؤلفه لما جعل نفسه
ملوماً وأظهر أنه إنما أبطل التبنّي في دينه لحظ نفسه وارضاء
شهوته وجعل هذه الفضيحة مسجلة عليه في الكتاب الذي
أمر بكتابته دون سائر كلامه وبشر بأنه ينتشر في مشارق
الارض ومغاربها وأنه يبقى مقروءاً متبعاً مادام الناس في
هذا العالم

قال مناظرنا ان الاستاذ كتب للمسلمين وكلامه مبني
على التسليم بنبوة محمد وهو لا ينهض حجة على النصارى الذين
ينظرون في المسئلة نظراً تاريخياً وقد ألمعنا الى هذا من قبل
ولذلك بنينا الكلام على ان محمداً رجل مصلح باسم النبوة نزل
جدلياً وان كان الذين يعتقد فيهم صاحبنا وقومه النبوة ليس
لهم من الأثر الاصلاحى الدينى عشر معشاره . أما كونه
مصلحاً فلا ينكره منهم عاقل وقد قال لي الدكتور فانديك
الشهير ان مبدأ الاصلاح الذى وضعه محمد هو أعظم المبادئ
وأقواها وهو الوحدة فى الاعتقاد والاجتماع . . ورأيت بعض

من كتب في تاريخ العرب من الافرنج جعل تاريخهم قسمين
 قسماً سماه (ما قبل الاصلاح المحمدي) وقسماً سماه (ما بعد
 الاصلاح المحمدي) وكل هذا من البديهيات فلنرجع الى
 أصل المسئلة

المخالف موافق لنا في شيء واحد وهو ان الآيات الواردة
 في المسئلة متضمنة لابطال التبني الذي كانت العرب تدين به
 ولكنه يدعي ان إبطال هذه البدعة لم يكن مقصوداً اولاً
 وبالذات وانما كان حيلة للتوسل الى تزوج محمد بزینب بعد ان
 تزوجها عتيقه ومتبنّاه زيد بن حارثة وراها عنده قد زادت
 حسناً عما كان يعهد . ولو كان الغرض ابطال التبني وما يترتب
 عليه من الاحكام الجائرة والمفاسد الضائرة لعهد بتنفيذ ذلك الى
 غيره من اتباعه . ونجيب عن هذا من وجوه تضمنها كلام
 الاستاذ واستلزمها

(الأول) من المشهود المعهود في البشر ان العادات
 والتقاليد متى صارت عامة يصعب على النفوس ان تتركها المجرد
 أمر مصلح لاسيما في اول زمن الدعوة الى الاصلاح ولا يقدم
 على الابتداء بخرق العادة وتمزيق حجب التقليد الا أصحاب

العزائم الكبيرة وهم المصلحون الذين يستهدفون لسهام الانتقاد العام ويتحلمون في سبيل الاصلاح كل إهانة وسخرية من الدهماء وجماهير الناس ليكونوا قدوة لغيرهم في ذلك . وقد اتفق علماء التربية على ان ملاكها وقوامها الاقتداء والتأسي لا القول والارشاد اللفظي . وكذلك كان شأن النبي (صلى الله عليه وسلم) في كل ما أبطله من اعتقاداتهم وتقاليدهم وعاداتهم يبدأ بنفسه ثم بأقرب الناس اليه . وقد مثلنا للأول في هامش مقالة الاستاذ بمسئلة الحلق في الحديدية وكيف خالف النبي جميع الصحابة حتى حلق بالفعل فاقتمدوا به ومثل الاستاذ بابطال الربا . ويفرض المخالف انه دخل في دين جديد مقتنعاً به ومعتقداً صحته وان القائم بالدعوة الى هذا الدين امره بان يتزوج بأخته لأن دينه يحكم بذلك اليس يصعب عليه الامتثال أشد الصعوبة بحيث يرجح مخالفته . هذا واننا نرى اهل كل دين قد خالفوا بعض احكام دينهم اتباعاً للعادات التي صارت عامة ويصعب عليهم الرجوع الى الأصل . واذا كان الامر بهذه الدرجة من الصعوبة فالعاقل لا يقدم على تكليف الناس به بمجرد القول خوفاً من اضطرارهم الى مخالفته التي تفسد العمل وتؤدي الى

خلاف المقصود

(الثاني) لو انه (صلى الله عليه وسلم) عمد الى تنفيذ هذا الحكم بغيره لاحتاج الى الأمر بمدة أمور بعضها أشد من بعض ومنها ما هو خلاف تعاليمه الدينية . (أحدها) ان يأمر بعض من تبني بان يتزوج وربما كان يقل في المسلمين عدد الادعياء الذين عندهم الاستطاعة الشرعية للتزوج مع ان الذين تبنوهم مسلمون وفي سن قابل للزواج وربما يقع الامر لغير المستطيع من حيث لا يعلم الامر لانه لم يكن عارفا بجميع شؤون الناس الخصوصية والمنزلية . على أن من شأن من يجب ان يطاع في كل أمر أن لا يتعرض للامور الخصوصية المباحة الا بالنسبة لا قرب الناس اليه بل هذا شأن جميع العقلاء وهذا الوجه أهون مما بعده (ثانيها) أن يأمره بعد الزواج بالطلاق والامر بالطلاق منكر وانما أباحه الشرع للضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم في التنفير منه « بغض الحلال الى الله الطلاق » رواه أبو داود من حديث ابن عمر رضی الله عنهما . ثم ان هذا المتزوج لا يبعد أن يحصل بينه وبين من يتزوج بها من الالفة والمحبة ما يصعب معه الفراق . ويتعاضى به الخضوع لامر الطلاق

(نالها) ان يأمر من كان تبني هذا المطلق بأن يتزوج بالمطلقة
ويُتوقع في هذا الامر امور منها أن هذا المتبني قد تنفر نفسه
منها لذاتها بان يستبشع صورتها أو يكون عارفاً من طباعها مالا
يمكنه معه معاشرتها وقد يكون متزوجاً بغيرها ولا يستطيع
الجمع بين امرأتين ثم ان هنا ملاحظة أهم من كل ما ذكر وهو
ان تعدد الزوجات مشروط في القرآن بعدم الخوف من ترك
العدل بين الزوجات ولا شك ان الذي يريد الزواج بامرأة
متبتناه لمجرد الامتثال لأمر النبي صلى الله عليه وسلم يخاف
من عدم العدل بين الزوجة الجديدة التي يأخذها كارها وبين
الاولى التي كان آلفاً لها ومستأنساً بمعاشرتها وعند ذلك لا يصح
النكاح . (رابعها) انه قد يرضى هو ولا ترضى هي لانها قتيبة
وهو شيخ مثلاً ولا يخفى شئ من هذه الامور على ذلك الرجل
العظيم الذي جاء بتعاليم واعمال قلبت هيئة الارض وغيرت
نظام الامم سواء كان نبياً (كما هو الواقع) أو لم يكن (كما هو
رأي المخالف)

(الوجه الثالث) ان هذا المصلح الحكيم اختار صورة
لابطال تلك العادة الدينية الجاهلية خالية من كل المحظورات

المشروحة في الوجه الثاني وذلك بان يزوج متبناه بامرأة يقضي العقل بانه يختار هو وإياها الفراق عن رضى لعدم الكفاءة ثم يتزوجها هو ولا شك انها ترضاه لما هو معلوم من القرابة والجمال والكمال وكذلك كان

(الوجه الرابع) ان الذى يدل مع ما تقدم على ان الامر مقصود للنبي (صلى الله عليه وسلم) منذ خطب زينب لزيد (رضى الله عنهما) إلحاحه فيه وعنايته الكبرى به. وقد خطب هو نساء ولم يتزوج بهن وتزوج بعدة نساء ولم يذكر في القرآن شئ من ذلك لان القرآن كما قلنا لم يذكر فيه الا أهم المهمات في الدين حتى انه لم يذكر فيه هيئة الصلاة ولا عدد ركعاتها ولا تحديد أوقاتها فعدم مبالاته بابائها وتمنعها وإيأاء أخيها لا يمكن أن يكون لمصلحتها ولا لمصلحة زيد لان العقل قاض بانه لا ينعم له معها بل مع هذا النفور والاباء وما هو معلوم من ثقة اشرف العرب كبنى هاشم وبني المطلب وهي من صميمهم وكانت لا ترى لها كفوءاً الا النبي (صلى الله عليه وسلم) فلم يبق لهذا الإلحاح والتحميم عليها بالرضى به الا قصد إبطال تلك البدعة الذميمة بأقرب الوجود وأبعدها عن الضرر والضرار

(الوجه الخامس) ان السورة التي ذكرت فيها القصة

جاء في فاتحتها « وما جعل ادعياءكم ابناءكم ذلکم قولکم بافوا حکمکم

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل . اذعوهم لا بائهم هو

اقسط عند الله فان لم تعلموا آباءهم فاخوانكم في الدين ومواليكم »

الآية . وجاء فيها بعد هذا وقبل ذكر القصة « لقد كان لكم في

رسول الله اسوة حسنة » فقد ابطال التبني بالقول ولم يعمل

بمقتضاه أحد قبله (صلى الله عليه وسلم) فهذا التمهيد . مع ذلك

التشديد . برهان كاف على ذلك القصد الحميد . ومناف لزعم

الزاعمين ان قصد النبي صلى الله عليه وسلم التزوج بزینب كان

بعد ما رآها في بيت زيد رضی الله عنه . وفي هذا كفاية لغير

المعاند والله أعلم .

نشرنا هذه المقالة في الجزء التاسع والعشرين من مجلد مجلة

« المنار » الرابع بعد مناظرة في مقالة الاستاذ بطني وبين احد

فضلاء المسيحيين كما علم من صدر المقالة

فهرست

— ما اشتملت عليه هذه المجموعة —

	صحيفة
خطبة الناشر	٢
مقدمة التفسير	٥
للتفسير وجود شتى	٦
القرآن حجة قائمة	٩
مراتب التفسير	١٠
ما الذي يجب على الناس من التفسير	١٥
الحاجة الشديدة الى التفسير اليوم وفيما بعده	١٦
جاهلية الناس اليوم أعرق في الجهل من الجاهلية الاولى	١٩
تأثير القرآن العظيم واعناء العلماء الاولين باللغة العربية	٢٠
سورة الفاتحة	٢١
بيان ان الفاتحة هي أول ما أنزل على الاطلاق من القرآن	٢٢
« ما احتوى عليه القرآن واشتمال الفاتحة عليه اجمالا	٢٣
التوحيد أهم ماجاء لاجله الدين	٢٤

صحيحة

- ٢٨ تفسير البسملة
- ٣٤ » الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم
- ٣٧ » مالك يوم الدين
- ٤٠ » اياك نعبد و اياك نستعين
- ٤٨ » اهدنا الصراط المستقيم
- ٥٥ » صراط الذين انعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
- ٥٩ اقسام الضالين
- ٦٤ المقالة الاولى في افعال العباد ونسبها تارة اليهم وتارة الى الله تعالى
- ٧٢ المقالة الثانية مسألة الغرائق وتفسير الآيات المشبهة بها
- ٧٣ تمهيد
- ٧٤ مصارعة الحق والباطل
- ٧٦ رفع الاسلام مقام الانبياء وحكمه بعصمتهم
- ٧٧ عيث عشاق الروايات و افسادهم في الدين
- ٧٨ الروايات واختلافها في مسألة الغرائق
- ٧٩ مخالفة المحققين لها

- ٧٩ الرجوع الى اهل العلم الصحيح في ازالة الحيرة
- ٨٠ الطعن في تفسير التمني بالقراءة
- ٨١ الطعن في حديث الغرائق رواية ودراية
- ٨٢ عصمة الانبياء
- ٨٢ الوجود الدالة على بطلان حديث الغرائق
- ٨٦ تفسير الآيات على الوجه الموافق لاسلوب القرآن
- المنطبق على العقائد الصحيحة
- ٨٧ السياق وسابق الآيات
- ٨٨ التفسير الاول وفيه المقابلة بين الآيات وآية سورة
- آل عمران في المحكمات والمتشابهات
- ٩٣ الوجه الثاني في تفسير الآيات
- ٩٣ امانى الانبياء
- ٩٤ سنة الله في الانبياء وفي اقوامهم
- ٩٧ تأويل ثالث
- ٩٩ اللغات في الفروق ومعانيه
- ٩٩ عدم ملائمة معانيه لوصف الآلهة وانتفاء ثقل ذلك

حكيمة

عن العرب

١٠٠ المقالة الثالثة مسألة زيد وزينب أو إبطال التبنّي

١٠١ تفسير الآيات في ذلك

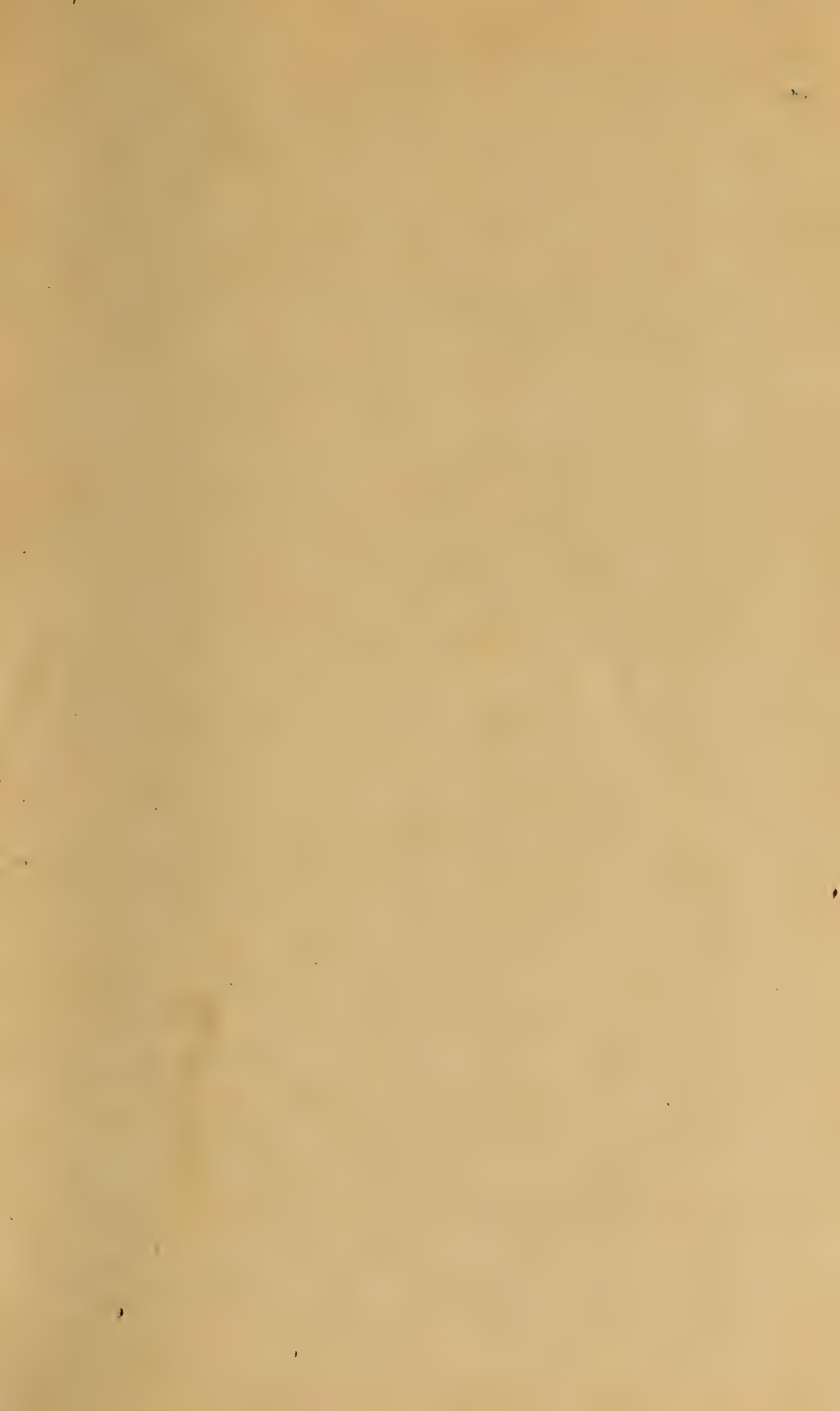
١١٣ المقالة الرابعة إيضاح وخلاصة في مسألة زيد وزينب أيضاً

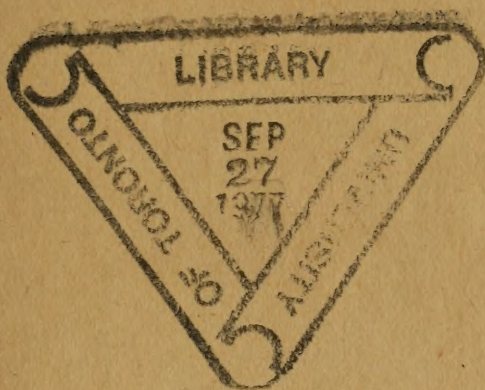
ورد شبهة مسيحي

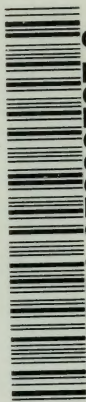
(تبيّه) لدى المراجعة بعد الطبع تبين لنا ثلاث غلطات فاقضى

بيانها لإصلاحها وهي

صواب	خطأ	سطر	حكيمة
حسنه يقولوا هذه	حسنه يقولوا	٧	١
الفهم	المدارك	١٣	١٩
تسبق	تسبق	٩	٢٢







3 1761 07292727 0

BP
128
.16
M8
1902